العلاقات بين مصر وأثيوبيا

في القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد محمود السروجي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

١٩٦١

مطبعة المصري

اسكندرية – خلف شكوريل ت ٣٦٤٠٦

العلاقات بين مصر وأثيوبيا

في القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد محمود السروجي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

١٩٦١

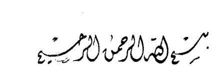
مطبعة المصري
اسكندرية . خلف شيكوريل ت ٣٧٤٠٦

الاهداء

الى ذكرى استاذى الجليل الدكتور محمد مصطفى صفوت

علامة تقدير واجلال وعرفان بالجميل من ابنه وتلميذ .

فهرس


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

استخرج الدكتور محمد محمود السروجى من رسالته القيمة فى تاريخ الجيش المصرى بحثا فى العلاقات بين مصر والحبشة فى فى القرن التاسع عشر ، وفيما صحب تلك العلاقات من اشتباك حربى امتدت آثاره إلى الازمات الاجتماعية التى كانت الحركة العرابية من مظاهرها العظمى . واتخذ الدكتور السروجى من بحثه هذا موضوعا للكتاب الذى يقدمه اليوم للمواطنين عموما وللطلاب الجامعيين خصوصا ـ ودعانى الدكتور السروجى لأن يكون لى نصيب فى الكتاب ، بعد أن كان لى نصيب فى مناقشة الرسالة الكبرى التى كانت موضوع الكتاب وموضوعات أخرى كثيرة ، وأنى إذا ما ذكرت تلك المناقشة ذكرت مترحما زميلا شارك فيها ، هو الدكتور محمد مصطفى صفوت تلميذى ثم زميلى الذى فقدته كليته وهى أحوج ما تكون إلى علمه وخلقه . وصفوت هو صاحب الفضل على صاحب الكتاب ، كان أستاذه ومرشده

وصديقه . والأسطر التى أخطها لهذا التقديم كان هو أولى بذلك منى ، فلتكن أيضا عرفانا بفضله واكراما لذكراه .

ولا نعرف جارا أحق بأن يحسن إلى جاره وأن يحسن جاره إليه كأمه الحبشة بالنسبة إلى مصر أو مصر بالنسبة للحبشة . لنا بالجزيرة العربية كما لهم صلات ، ونهلنا كما نهلوا من المنابع الاسلامية والمسيحية . وبنيت نصرانيتهم كما بنيت النصرانية المصرية على قواعد وطنية ، وبلادهم مداخل ومخارج لحياتنا التجارية وكذلك بلادنا لهم . ويلتقون بنا فى أكثر من مكان . يلتقون بنا فى وادى النيل وفى البحر الأحمر وفى بيت المقـــدس ، فلم كانت أزمات إمتد إليهم أذانا وامتد إلينا أذاهم ؟

ندرس فى كتاب الدكتور السروجى حلقة من حلقـــات الاصطدام فى حرب وقعت بلا داع من شرف أو مال يقتضى وقوعها ـ بل على العـكس ـ كان كل شىء إذ ذاك يدعو الى تجنبها ، يدعو الى تجنبها تربص الدول الاوربية لنـــا ولهم ، ويدعو الى تجنبها حاجتنا وحاجتهم الى تخليص مجتمعنا ومجتمعهم من شوائب ومفاسد ، يدعو الى تجنبها حاجتنا وحاجتهم الى عدم تبديد ما لدينا من المال القليل فى التخريب والفساد فى الأرض .

ووقعت الحرب ، ولم نحسن من أمرها شيئا . قيادة مختلطة يكاد

أعضاؤها لا يجدون لغة يستطيعون التفاهم بها . وخطط مضطربة ، وسوء تدبير فى أثر سوء تدبير — ولا يخرج من الحرب مرفوع الرأس الا الجند من المصريين ومن الأحباش . قاموا بواجبهم على خير ما يشرف الجندى — وكانت طعنة الهزيمة أقسى من طعنة الرمح الحبشى . وأحدثت جراحا معنوية ثم تلتئم . وكان من أمرها فيما بعد ما كان .

ويدرس الدكتور السروجى الحرب دراسة كاملة — أسبابها وأطوارها ونتائجها . ورجع الى المصادر الصحيحة رجوعا حسنا واستخدمها استخدام إنصاف وتعقل وأناة . وأدرك ما كان من عواقبها ادراكا حسنا. فجاء هذا الكتاب داعيا الى التبصر فيما كان من سوء الجوار كى نحل محلهما يجب أن يكون من حسن الجوار . وجاء بذلك جديرا بأن يمكن جيراننا من الاطلاع عليه ليروا فيها مبلغ استعدادنا لعرض مأساة الحرب الحبشية المصرية بروح الانصاف وبروح الأمل ، بالانصاف الذى يبين أن الحق لم يكن كله فى جانب واحد ، وبالأمل فى أن الفصل الجديد من التاريخ الافريقى سنلتقى فيه أحبابا متفاهمين متعاونين .

نوفمبر ١٩٦٠

محمد شفيق غربال

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب تاريخ العلاقات بين مصر وأثيوبيا فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ، وفى النصف الثانى منه على وجه الخصوص . ويعتبر هذا الموضوع من أدق الموضوعات التاريخية بحثا ، ومن أكثرها تعقيدا ، لاسيما اذا كان الهدف من ورائه الوصول الى الحقيقة المجردة من بين آلاف الوثائق المتضاربة ، من عربية وتركية وانجليزية وفرنسية وأمريكية ونمساوية ، مما أتيح لى الاطلاع عليه ودراسته . ولهذا يمكننى القول بأن هذا البحث يعتمد أساسا على تلك الوثائق . أما عن الكتب العربية والأجنبية فتأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية .

ومع أن الكتب والمراجع الأوربية التى تعرضت لبعض نقاط هذا البحث قليلة العدد ، إلا أنها - رغم ذلك - تفتقر إلى روح البحث العلمى المنزه عن الهوى . بل إنها تعمد فى أوقات كثيرة إلى تشويه الحقائق وصبغها بصبغة معينة لمأرب فى نفوس مؤلفيها .

وتواجه الباحث فى معالجته لهذا الموضوع صعوبات عديدة ، أهمها إلتزام موقف الحياد التام إزاء مسائل هامة تمس بلاده فى الصميم ؛ وفى نفس الوقت تتعلق بتاريخ بلد شقيق يربطه بنا أصدق روابط الود والإخاء .

ورغم هذه الصعوبة فقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم للقارىء دراسة علمية صادقة لهذه الفترة من تاريخ العلاقات بين البلدين، بعيدة كل البعد عن التحيز معتمدا فى ذلك على أوثق المصادر وأصدقها بعد دراسة وتمحيص .

وقد حرصت كل الحرص على نقل الوثائق التاريخيه التى وردت فى سياق هذا البحث كما هى بكل ما فيها من أخطاء لغوية ونحوية تحقيقا للأمانة العلمية .

ولما كانت الجمهورية العربية المتحدة تهتم اهتماما خاصا بشئون افريقيا ، باعتبارها عضوا هاما فى الأسرة الافريقية ، ومن أولى الدول التى حملت مشعل الثورة والحرب على الاستعمار فى تلك القارة . ولما كان من سياستها العمل على إقامة علاقتها الخارجية مع شقيقاتها الافريقيات على أسس وطيدة من المساواة والتعاون المثمر لمصلحة المجموع ، فمن الأهمية بمكان أن نكون على علم بتاريخنا الحديث فى تلك القارة التى نعيش فيها ، بكل ما فيه من فشل ونجاح وأن نستفيد من خبرتنا وتجاربنا الماضية للمساهمة فى بناء المجتمع الأفريقى الجديد الذى يناضل فى سبيل الحرية والاستقلال .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أشيد بالتوجيه السديد الذى لقيته من استاذي الكبير المغفور له الأستاذ الدكتور محمد مصطفى

صفوت ، تغمده الله برحمته ، ومن أستاذى الجليلين محمد شفيق غربال والدكتور احمد عزت عبد الكريم .

وفى الختام أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضى لهذا الموضوع ، والله ولى التوفيق .

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٠

محمد محمود السروجى

تمهيـــد

ظهرت فى العشرينات من القرن التاسع عشر دولة كبرى فى وادى النيل تضم مصر والسودان فى وحدة واحدة ، تمتد حدودها من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منطقة أعالى النيل جنوبا . ونظراً لدخول معظم سواحل البحر الأحمر الغربية فى حدود الدولة الجديدة ، أن أصبحت تربطها بالحبشة حدود مشتركة .

وكان طبيعياً أن تنظر الحبشة بعين القلق إلى تقـدم النفوذ المصرى نحو الجنوب ، وخصوصا فى عهد الخديو اسماعيل، حيث اتسعت رقعة الخديوية المصرية اتساعا كبيرا ،وأحاطت بالممتلكات الحبشية من كل جانب .

لم تنظر الحبشة إذن بعين الارتياح إلى توحيد أجزاء السودان فى ظل الوحدة الجديدة ، ولا لما تقوم به مصر من تأمين حدودها وتعزيز قواتها ، تدعيما لحركة الاصلاح والعمران ، وتمكيناً لها من إدارة شئونها على أسس إدارية صحيحة .

كان من الضرورى أن تتأثر العلاقات بين البلدين نتيجة لهذه الأوضاع الجديدة . ولهذا يمكننا القول بأن العلاقات المصرية الحبشية فى القرن الماضى قد اتسمت فى بعض الأحيان بالرغبة فى التعايش السلمى وفى قبول الأمر الواقع . وفى أحيان أخرى غلب عليها طابع غير ودى .

وإذا حاولنا أن نلقى شيئا من الضوء على العلاقات بين الدولتين فى القرن التاسع عشر ، وأن نجد تفسيرا للازمات التى مرت بها ، فلن يعيينا البحث فتجاور الدولتين واشتراكهما فى الحدود يعتبر من أهم الأسباب ـ أن لم يكن السبب الأساسى ـ فى تعكير صفو العلاقات بينهما .

فادعاء الحبشة ملكية بعض مناطق الحدود التى فى حوزة مصر وخوفها من وجود دولة فتية على حدودها تهدد استقلالها وكيانها السياسى ، أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين وإلى سيادة القلق والاضطراب الحدود المصرية الحبشية ، بسبب تعـــدى القبائل الحبشية عليها وارتكابها أعمال السلب والنهب بتشجيع من السلطات الحبشية المسئولة ، لخلق المتاعب للهيئة المصرية الحاكمة ولزعزعة الثقة بمركز مصر الحربى فى تلك المناطق .

ولم يكن مرد هذا الاضطراب فى تلك المناطق إلى قلة مالدى مصر من قوات حربية ، بقدر ماهو راجع إلى طبيعة تلك البلاد وطبيعة السكان أنفسهم . فاذا نظرنا إلى مناطق الحدود هـذه نجد بها قبائل رحل ، تقطن على جانبيها ، وتنتقل من جانب الى آخر دون نظر الى خط الحدود الذى لم يكن معترفا به ، لا من قبل تلك القبائل ولا من السلطات الحبشية المسئولة .

وكان انتقال هذه القبائل من جهة إلى أخرى مثاراً لكثير من المتاعب للادارة المصرية فى السودان . فقد جبلت هذه القبائل على

عدم الخضوع والطاعة إلا بقدر مايحقق لها هذا الخضوع من مصالح . فإذا ما اشتدت قبضة الحكومة المصرية على القبائل الخاضعة لحكمها ، لاتجد هذه القبائل غضاضة فى عبور الحدود والالتجاء إلى الاراضى الحبشية ومناوأة السلطات المصرية ، والقيام بأعمال السلب والنهب ، سعيا وراء الكسب ، واستجابة لرغبتها فى الحرب والقتال ، واظهاراً لولائها واخلاصها لملك الحبشة .

كذلك كان من أسباب عدم الاستقرار فى منطقة الحدود تشجيع كلا الطرفين المصرى والحبشى للفارين من كلا الجانبين ، وبسط حمايته عليهم ، وامدادهم بكل مايحتاجون اليه من مؤن وسلاح . ولم يكن هذا الاجراء ـ بطبيعة الحال ـ مما يشجع على استتباب الأمن أو إقرار الأوضاع فى تلك المنطقة .

هذا بالاضافة إلى خوف الحبشة من أطماع محمد على ، لاسيما بعد أن أشاعت الجرائد الاوربية بعزمه على ضم الحبشة إلى ممتلكاته ووقوف الحكومة الأنجليزية فى وجهه ، بل إن هذه المخاوف لم تنته بعقد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ولا بصدور فرمان سنة ١٨٤١ . فبينما تضع المعاهدة وكذلك الفرمان حداً لتوسع محمد على فى القارة الاسيوية ، نجد أنهما لم يقفا فى طريق توسعه فى السودان والمناطق المحيطة به . وهذا يفسر لنا استمرار الاضطرابات على الحدود السودانية الحبشية حتى أواخر أيام محمد على .

وقد حاولت الحكومة المصرية جاهدة فى عهد محمد على

الوصول إلى اتفاق مع الحبشة بشأن الحدود ، وذلك لايجاد نوع من الاستقرار والهدوء فى تلك المناطق ، ولكن جميع تلك الجهود قد باءت بالفشل لعدم اعتراف الحبشة بشرعية امتلاك مصر لبعض مناطق الحدود مثل القضارف والقلابات (دار القلابات) وفازوغلى .

واستمر الوضع على الحدود دون أن يطرأ عليه أى تغيير فى عهدى عباس الأول وسعيد ، فلم تنقطع أعمال السلب والنهب ولم ينقطع أيضا تحذير كل من الطرفين المصرى والحبشى للآخر وتهديده باستخدام القوة إذا لم توقف تلك الأعمال .

وفى عهد اسماعيل حاولت مصر أن تؤمن حدودها الجنوبية من ناحية الحبشة بوسيلتين : الأولى: تحصين تلك الحدود وايجاد عدد كاف من الجنود بها ، بحيث تصبح مهاجمة الحدود المصرية من الأمور العسيرة التى تكلف المعتدين ثمنا باهظا . والثانية استمالة أكبر عدد من القبائل الحبشية الضاربة على حدود الحبشة وتشجيعها على الالتجاء إلى الممتلكات المصرية ، والتمتع بالحماية اللازمة ، مع منحها من الامتيازات مايرغبها فى البقاء تحت طاعة الحكومة المصرية .

ورغم الأخذ بهاتين الطريقتين ، فقد أخفقت مصر فى تحقيق ما تصبو اليه ، فتحصين الحدود السودانية الحبشية يستلزم استخدام عدد كبير من الضباط والجنود ، فى نفس الوقت الذى كانت مصر

فى أشد الحاجة إلى الجنود للقيام بفتوحاتها العديدة فى مختلف انحاء السودان. ولهذا استمرت الحدود السودانية الحبشية مكشوفة إلى حد كبير، ولا يوجد بها من الجنود ما يخيف الأحباش.

أما فيما يتعلق بالسياسة التى سارت عليها مصر فى استمالة القبائل الحبشية إلى جانبها واخضاعها لسلطتها، فلم تكن منزهة عن الخطأ، فمعظم هذه القبائل كانت غير مخلصة لمصر. بل كان بعضها عيونا للاحباش تنقل اليهم كل حركاتها وسكناتها، وكان البعض الآخر لايهمه من أمر مصر سوى السير فى ركابها واستنزاف أكبر قدر من أموالها. بينما كان البعض يدين بالولاء لمصر طالما كان يشعر بقوتها وبقدرتها على الانتصار على الاحباش. فلما تطرق إلى هؤلاء الشك انصرفوا عنها راجعين.

لكل ماذكرنا نجد أن العلاقات بين مصر والحبشة لم تتحسن فى عهد اسماعيل، بل على العكس من ذلك، فقد جد من الأمور مازادها سوءا. وخير مثل لذلك الحملة الانجليزية على الحبشة وموقف مصر منها.

الفصل الأول

الحملة الانجليزية على الحبشة وموقف مصر منها

من أهم الأسباب التى أدت إلى سوء العلاقات بين مصر والحبشة ، وكانت من العوامل الهامة فى قيام النزاع المسلح بين الدولتين فى النهاية هى الحرب الانجليزية الحبشية . ولهذا سنتعرض لتلك الحرب بشىء من الإيجاز لما لها من صلة وثيقة بموضوع دراستنا ، وكذلك لبيان الدور الفعال الذى قامت به مصر فى مساعدتها لانجلترا فى تلك الحملة ، وللسياسه التى انتهجتها مصر ازاءها ؛ ولوجود بعض التشابه بينها وبين الحملة المصرية على الحبشة .

ويرجع السبب فى قيام تلك الحرب إلى رغبة الملك ثيودورس Theodorus ملك الحبشة فى إنشاء سفارتين بالحبشة إحداهما انجليزية والأخرى فرنسية ، وانصراف كل من الدولتين عن تلبية تلك الرغبة ، مما أدى إلى إغضاب الملك وإثارته ، وإلى التعبير عن هذا الغضب بالقبض على الرعايا الأوروبيين المقيمين بالحبشة سواء منهم المشتغلين بالتجارة أو من رجال الدين وإيداعهم السجن ومن بين هؤلاء القنصل الانجليزى كاميرون D. Cameron .

تدخل مصر :

أثار هذا المسلك الشاذ من قبل الملك حكومتى انجلترا وفرنسا، ولكنهما آثرتا التريث والالتجاء إلى الطرق الودية لإنهاء الأزمة والسعى لإطلاق سراح هؤلاء المعتقلين . فلما أعيت الحيل انجلترا لجأت إلى والى مصر اسماعيل لاستخدام نفوذه فى التوسط بين الطرفين المتنازعين عسى أن ينجح فى إقناع الملك ثيودورس بالعدول عن موقفه . وقد استجاب اسماعيل لرغبة انجلترا ، فأرسل إلى الملك كتابا (اكتوبر ١٨٦٧) ينصحه فيه باطلاق سراح الرعايا الأوروبيين حقنا للدماء ويحذره فى نهايته من مغبة عمله هذا ، ويهدده بأنه إذا لم يطلق سراح المعتقلين بالحسنى ، فستسلط عليه الحكومة الانجليزية جنوداً لاقبل له عليها ، وسيمر هؤلاء الجنود بالأراضى المصرية ، وبأنه (أى اسماعيل) لن يستطيع الوقوف فى طريقها . فالأفضل إذن إنهاء تلك المشكلة بالطرق الودية[1] .

ويبدو أن الخديو اسماعيل لم يكن يهمه أن يقوم بدور الوسيط الفعلى فى هذا النزاع بقدر ماكان يهمه تبرير موقفه بإزاء مرور القوات الانجليزية عبر الأراضى المصرية فى حالة رفض ملك الحبشة إنهاء المشكلة بالطرق الودية ، لأنه كان يعلم مقدما بفشل كل المساعى الودية التى بذلتها انجلترا فى هذا الشأن .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٤ عابدين من الجناب العالى إلى أمبراطور الحبشة وثيقة رقم ٤٦٤ فى ٢ جماد آخر سنة ١٢٨٤ ه ‍ أ كتوبر ١٨٦٧ .

ورغم أن الخديو اسماعيل لم يكن يريد التورط فى مساعدة الحملة الانجليزية ، إلا أنه كان مضطراً إلى ذلك لعـــدة عوامل تتلخص فى الاستجابة لأمر الباب العالى[١] ، وإرضاء الحكومة الانجليزية ، والعمل على هزيمة الحبشة انتقاما منها لكثرة إغاراتها على حدود مصر الجنوبية ، وتتابع تلك الهجمات منذ أواخر ولاية سعيد . بل لقد بلغت تلك الاغارات من الكثرة إلى حد أن اقترح موسى حمدى باشا حكمدار السودان على الخديو اسماعيل إخلاء القرى الواقعة على الحدود المصرية الحبشية ، لكى تبقى الحدود بعيدة عن بعضها مسافة سبعة أيام ، وتصبح هذه المنطقة مجردة من العمار وخالية من المؤن[٢] . ولكن هذا الأقتراح لم يجد قبولا لدى والى مصر ، وفضل تعزيز نقط الحراسة بتلك المناطق بعدد آخر من الجنود بدلا من اخلائها[٣] .

وحينما أيقنت الحكومة الانجليزية بأن تلك الازمة لن تحل إلا باستخدام القوة ، ويئست من الوصول الى حل ودى ، كلفت حكومة الهند بتجهيز جيش كبير تحت قيادة الجنرال روبرت

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٤ عابدين من الجناب العالى إلى الباب العالى . وثيقة رقم ٤٤٤ فى ٢ جماد آخر ١٢٨٤ «أكتوبر ١٨٦٧» .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٥٩ «معية تركى» من موسى حمدى حكمدار السودان إلى صاحب السعادة المهردار . وثيقة رقم ٣٥٥ فى ٢٨ رجب سنة ١٢٧٩ « يناير سنة ١٨٦٣ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى وثيقة ٥٥٨ « معية تركى » أمر كريم إلى حكمدار السودان رقم ١٠ ص ٢٩ فى ٢٣ شـــوال سنة ١٢٨٣ « فبراير سنة ١٨٦٧ » .

نابيير Robert napier فى سبتمبر ١٨٦٧ [١] » ويتألف من ١٤٫٦٨٣ جنديا يتبعه ٢٨٫٠١٦ من الخدمة ومعه ٣٦٫٠٩٣ من حيوانات النقل والخيل و٤٤ فيلا . » [٢] ونزلت تلك الحملة بميناء زولا على ساحل البحر الأحمر .

لكل تلك الاسباب التى أشرنا اليها أصدر الخديو اسماعيل أمره الى عبد القادر باشا محافظ مصوع بامداد الجيش الانجليزى بكل مايحتاج اليه . وبناء على هذا الأمر وضع المحافظ بعض سناجق الباشبوزق (ضباط غير نظاميين) فى ميناء زولا لتقديم التسهيلات اللازمه للحملة ، «وجعل جمالى بك قومندان فرقاطة شير جهاد باشبوغا (رئيسا) للبواخر المصرية الست التى خصصت لمساعدة الانجليز بالبحر الأحمر وهى : كفيت والتاكة وشندى واسوان والطور وشير جهاد » [٣].

وقامت تلك السفن بنقل كل مايلزم القوات الانجليزية المحاربة من مؤن من ميناء السويس . وزيادة فى المساعدة سمحت الحكومة المصرية لبعض التجار من المصريين الوطنيين بمرافقة الحملة والتعاون معها .

الشك فى نوايا انجلترا :

ورغم تقديم مصر المساعدات اللازمة للحملة . إلا أنها —

Buckle, The Life of B. Disraeli, vol. II P 302. (١)

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) حقائق الأخبار جـ ٢ ص ٢٩٩ .

فى نفس الوقت ـ كانت تخشى من مطامع انجلترا فى المناطق المحيطة بحدود مصر الجنوبية والمتاخمة لحدود الحبشة . ولهذا كان حكام تلك الجهات من المصريين يقومون بمراقبة تحركات القوات الانجليزية بعين يقظة ساهرة ، ويرسلون بتقارير متوالية إلى والى مصر بكل مايدور فى تلك الجهات . ويبدون فى بعض الأوقات شكوكهم من مسلك تلك القوات فى بعض الأمور .

ومن هذه التقارير التى تصور لنا هذا الشك ، تقرير بعث به راغب باشا ناظر الداخلية الى مهردار الخديو ـ استناداً إلى ماوصله من معلومات ـ يذكر فيه أن القوات الانجليزية بدأت فى بناء منشآت لها على شاطىء زولا فى منطقة الخليج الواقع على بعد ثلاثين ميلا قبلى مصوع لحفظ المهمات ولإقامة الحيوانات ، وأن عبد القادر باشا محافظ مصوع عندما أراد أن يرافق محافظ عدن والقنصل الانجليزى فى مرورهما على مينائى مصوع وزولا التمسا منه ألا يصحبهما بحجة المحافظة على مبادىء الحياد التى تسير عليها مصر إزاء الحرب الناشبة بين انجلترا والحبشة .

ويعلل راغب باشا ناظر الداخلية فى رسالته ، مسلك الانجليز هذا بقوله : « إن رغبتهم فى عدم ذهاب محافظ مصوع إلى زله (زولا) حفظا لمبادىء الحياد ، بينما يسمح لهم بالمـــرور من مصوع ومن جميع حدودنا ، يشعرنا بأنهم يريدون أن يعدوا زله (زولا) كأنها غير تابعة لخديوية مصر[1] » .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٤٢ معية تركى» من راغب باشا ناظر الداخلية إلى حضرة صاحب السعادة المهردار . وثيقة رقم ١١٧ مرفق ١ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٤ « أكتوبر سنة ١٨٦٧ » .

وفى حقيقة الأمر فإن تصرف هذين المسئولين الانجليزيين يثير الشك ، فدعواهما بالمحافظة على الحيـــاد لا تستقيم مع موقف مصر من الحملة الانجليزية منذ البداية ، فلم يكن موقفها موقف حياد بأى حال من الأحوال . وهذا مادعاناظر الداخلية أن يقترح على والى مصر بأن «يتوجه عبد القادر باشا إلى شاطىء زلة (زولا) وفى معيته عشر أو خمسة عشر قواصاً وترجمانية ومعاون بحجة زيارة محافظ عدن والقنصل (الانجليزى) والنظر فى الوسائل المؤدية لتسهيل مايلزمهما . وبعد المقابلة يقول لهما إننى آسف لأنى لم أجد هنا أحداً منا ليساعدكم فى مايلزمكم ، فإنى عمـــلا بتقاليد الضيافة أعين بعض الأشخاص لتلبية طلباتكم أولا بأول . وبعد أن يستبقى هناك أحد المأمورين وأحد التراجمة وبعض القواصين من الذين فى معيته ويتم المرغوب على هذا الوجه ، يوعز الباشا المشار اليه إلى المأمور الذى استبقاه سرا بأن يوافيه بما يقع هناك من حركات أولا فأول » [1]

كذلك خشيت الحكومة المصرية من اتصال المسؤلين الانجليز بكبار المشايخ والعربان المقيمين بتلك المناطق، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن تستطيع منع هذا الاتصال . ولهذا عملت على استمالة هؤلاء إلى جانبها بمختلف السبل . ولما كان القائمون على أمر الحملة من الانجليز

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٤٢ «معية تركى» من راغب باشا ناظر الداخلية إلى حضرة صاحب السعادة المهردار . وثيقة رقم ١١٧ مرفق ١ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٤ « أكتوبر سنة ١٨٦٧ » .

يغدقون على هؤلاء المشايخ أموالا وهدايا كثيرة تأميناً لظهورهم وكسبا لصداقتهم فقد عملت الحكومة المصرية من جانبها على منح هؤلاء ضعف ما منحه لهم الانجليز لتضمن بذلك ولاءهم وإخلاصهم [١]

ويبدو أن أزمة الثقة كانت موجودة لدى الطرفين المصرى والانجليزى، فلم تكن مصر وحدها التى تشك فى تصرفات الانجليز فى تلك المناطق، بل ان السلطات العسكرية الانجليزية أيضا كانت تخشى جانب مصر، وتراقب مايجرى داخل الحدود المصرية عن طريق عيونها المنبثين فى تلك الجهات. ونستدل على ذلك بما كتبه حكمدار السودان إلى مهردار الخديو يخبره بوجود أحد الانجليز بمنطقة الحدود المصرية يقوم بشراء الجمال والبنادق من السكان لإرسالها إلى ميناء مصوع. ويعلق الحكمدار على هذا النبأ بقوله « انه يغلب على الظن أن هذا الرجل مكلف سراً بجمع الأسلحة النارية من الأهالى والعربان التابعين لنا والموجودين فى حدود الحبشة خوفاً من اتفاقهم مع الأحباش حسب ظنهم الفاسد .. وقد كتب وكيل الحكمدارية الى المديرين مكاتبات غير رسمية يكلفهم بالتنبيه على الأهالى ومشايخ العربان بصفة سرية بألا يبيع أحد السلاح الموجود عنده [٢]». ولم تكن الحكومة الانجليزية بطبيعة الحال فى حاجة الى مثل تلك الأسلحة والبنادق القديمة

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى سجل عابدين رقم ٤١ من الجناب العالى الى الفيوكتخدا « كامل بك» وثيقة رقم ٦٣٥ فى ٣ محرم سنة ١٢٨٥ .

لاستخدامها فى الحرب الى جانب أحدث الأسلحة التى كان يتزود بها الجيش الانجليزى فى ذلك الوقت .

بعد أن أتمت الحملة استعدادها زحفت نحو مجدله ، واستطاعت بعد قتال شديد الانتصار على القوات الحبشية والاستيلاء عليها . وعند ماوجد تيودورس أن فراره من يد الانجليز أصبح مستحيلا، وضع حداً لحياته . وقد تلقى الشعب الانجليزى وعلى رأسه دزريلى نبأ الانتصار فى صباح ٢٦ أبريل سنة ١٨٦٨ بفرح وسرور عظيمين وذلك لتعلق الحملة بهيبة الحكومة الانجليزية وكرامتها الى حد بعيد.

وبعد أن حققت الحملة أغراضها انسحبت من الأراضى الحبشية فى نفس السنة ، وبهذا يصح ما أعلنه دزريلى فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ عند إرساله الحملة بأن الحكومة الانجليزية مقدمة على حرب « لا لضم أراض جديدة ، ولا لتأمين المصالح التجارية الانجليزية ولكن لأسباب أخلاقية عالية ، ولأسباب أخلاقية فقط » .

"Not to obtain territory, not to secure commercial advantages, but for high moral Causes and for high moral causes alone(1)".

نتائج الحملة فيما يختص بمصر :

ولهذا تعتبر الحرب الانجليزية الحبشية حربا فريدة فى نوعها خلال القرن التاسع عشر ، حيث طغت فيه سياسة الامبرياليزم

Buckle ; The Life of B. Disraeli vol. I P. 384 (١)

على تصرفات الدول الأوربيه الكبرى وكل ما وجة للحمله من نقد يدور حول كثرة الأموال التى انفقت عليها وتجاوزها لمقدار الأثنين مليون جنيه انجليزى التى قدرت لها فى أول الأمر بحوالى سبعة ملايين جنيه . مما حدا بالحكومة الانجليزية الى موازنة هذا هذا العجز فى الميزانية برفع ضريبة الدخل على الإيراد[1] .

ولكن المسائل المادية لم تكن تدخل فى اعتبار دزريلى ، وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بكرامة حكومته . بل ان الحكومة الانجليزية لم تكن تأمل فى الحصول على هذا النصر السريع ، فربما بعد كل مابذل من جهود تفشل الحملة نتيجة لسوء الأحوال المناخية من ناحية ولمقدرة الأحباش الفائقة على المقاومة والقتال فى أشد المناطق الجبلية وعورة من ناحية أخرى[2].

ومع أن الحملة الانجليزية على الحبشة قد انتهت فى صالح انجلترا إلا أنها قد أضرت بمصالح مصر ضرراً بليغاً، فقد أشعلت عوامل العداوة والبغضاء التى يكنها ملك الحبشة الجديد يوحنا لمصر ، وحملها كل ما أصاب بلاده من هزيمة واندحار . فلولا سماحها للقوات الانجليزية بعبور أراضيها وتقديمها المساعدات اللازمة لها، لما استطاعت تلك القوات أن تصل إلى قلب الأراضى الحبشية فى يسر وسهولة وأن تنزل بالأحباش هزيمة سريعة .

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣ــ٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق .

كذلك نجد أن انجلترا لم تعترف بما أسدته اليها مصر من جميل، بل على عكس ذلك، قامت ببيع بعض أسلحة الحملة ومعداتها إلى الحبشة بثمن بخس. كما فضل عدد قليل من ضباطها البقاء فى الحبشة والدخول فى خدمة يوحنا كمستشارين ومدربين للجيش الحبشى. فتسليح الاحباش بهذه المعدات الإنجليزية الحديثة لم يكن فى صالح مصر البته. بل كان من الأسباب الهامة التى شجعت يوحنـــا على المضى فى تحديه للادارة المصرية وعدم الميل إلى حل المشاكل المعلقة بين البلدين بالطرق الودية.

الفصل الثانى

التوسع المصرى فى السودان
وأثره فى العلاقات المصرية الحبشية

انتهى النزاع بين محمد على والسلطان العثمانى بتسوية عام ١٨٤١ التى منحته حكم مصر وراثياً علاوة على حكم السودان وملحقاته مدى الحياة. واذا كان محمد على قد عجز عن الاحتفاظ بفتوحاته فى شبه الجزيرة العربية والشام وكريت إلا أنه نجح فى الاحتفاظ بالسودان كمكافأة على ما قامت به مصر من جهود فى تلك البلاد.

كما أن صدور فرمان ١٨٤١ الخاص بالسودان أباح لمصر التوسع جنوبا وضم ماتراه ضروريا ولازما لصون مصالحها فى مياه النيل. وسيبدو هذا واضحا جليا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وبمقتضى هذا الفرمان أصبح والى مصر يحكم مصر والسودان كوحدة واحدة ويدير شئونها بما يتفق مـــع مصلحة المصريين والسودانيين فى ظل السيادة العثمانية غير المباشرة، وفى حدود مانصت عليه الفرمانات. ولم تكن المناطق التى ورد ذكرها فى الفرمان (النوبه ودارفور وكردفان وسنار) هى وحدها التى

خضعت للسيادة العثمانية ، بل لقد خضعت لها مناطق أخرى فى السودان الشرقى تمتد من سواكن شمالا الى باب المندب جنوبا بما فى ذلك ميناء مصوع والحبشة . ولكنها كانت خاضعة لوالى جده فى ذلك الوقت ، وكان محمد على يتوق الى وضع تلك المناطق تحت حكمه وقد أفلح فى أخريات أيام حياته فى ضم سواكن ومصوع إلى حكمه ، ولكن سرعان ماخرجت هذه المناطق من قبضة مصر بعد وفاته .

وكان هدف محمد على من الاستيلاء على هذين الميناءين وما يحيط بهما ، أن يتخذهما كنقطتى ارتكاز لعملياته التوسيعة على سواحل البحر الأحمر الغربية وشرق أفريقيا . ويبدو ذلك من اهتمام محمد على بوضع حاكم خاص لادارة هاتين المنطقتين وارسال تجريدة حربية صغيرة لكشف المناطق الساحلية الممتدة على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر حتى باب المندب كما وضعت دراسات خاصة عن المناطق الساحلية لشرق أفريقيا والممتدة من سواكن جنوباً إلى بربرة توطئة للقيام بحملة عسكرية لاستعادة ضم تلك المناطق التى خضعت للدولة العثمانية أيام حكم السلطان سليم الأول .

أى أن محمد على قد حاول فى ذلك الوقت القيام بحملة عسكرية هدفها احياء الفتوحات العثمانية القديمة فى ظل السيادة المصرية المباشرة وكانت الحملة المزمع إرسالها ستكتسح الحبشة - بطبيعة الحال - فى طريق تقدمها نحو الجنوب . ولكن هذا المشروع أثار

غضب الحكومة الانجليزية على محمد على ، فهى لن تسلم بأى حال من الأحوال بوقوع الحبشة فى قبضة والى مصر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالحبشة دولة مسيحية ، وانجلترا تتبع فى سياستها الخارجيـــة سياسة العطف ومناصرة الدول المسيحية ، ولذا فقد لفت نظر والى مصر إلى خطورة ماهو مقدم عليه من أعمال وحذرته من الاقتراب من الحبشة ، ولم يمض على هذا التحذير غير فترة قصيرة حتى مرض محمد على ومات فلم يجد المشروع له نصيراً فى عهد خلفيه عباس الأول وسعيد .

كان على اسماعيل اذاً أن ينهج على منوال محمد على وأن يحاول احياء الفتوحات العثمانية القديمة فى ظل السيادة المصرية . فما أن نفضت مصر يدها من مسألة كريت (١٨٦٧/٦٦) حتى أخذت فى تنفيذ سياستها التوسعية فى القارة الأفريقية ، تلك السياسة التى عبر عنها المسيو بارو Barrot سكرتير الخديو اسماعيل الخاص لوزير خارجية فرنسا المسيو ديكاز بقوله « ان موقع مصر يحتم عليها العمل على ادخال المدنية والحضارة إلى القارة الافريقية . وأن هذا العمل الضخم سيستنفد كل قوتها وحيويتها ومواردها ، مما لايجعل لديها بقية من جهد تستطيع توجيهه الى قارة أخرى»[1]

وقد ذكر قنصل انجلترا الجنرال بمصر للورد دربى Lord Derby

(1) F.O. 78-2633. C. Vivian to the Earl of Derby No. 266 political secret and confidential. Alex. Aug. 21.1877.

وزير خارجية انجلترا سنة ١٨٧٦ بأن الخديو اسماعيل ينظر إلى مصر كدولة أفريقيه ويحلم بالتوسع فى تلك القارة وليست لديه اطماع خارج حدودها لأنه يعتقد أن التوسع فى أفريقيا ذو فائدة كبرى للمدنية والانسانية بصفة عامة .

بعثة السير ساميويل بيكر العسكرية :

فتوسع مصر فى القارة الافريقية ومحاولتها تكوين امبراطورية افريقية كان يخضع لاعتبارات متعددة أهمها التزام مصر بنصوص فرمان ١٨٤١ ، وتوجيه هـــذا الفرمان لنشاطها نحو السودان . فاذا كان لدى مصر نشاط زائد فلتعبر عنه فى أفريقيا . كذلك كان من الاعتبارات التى لها أهميتها فى توجيه مصر نحو التوسع فى الجنوب رغبتها فى ضم منابع النيل ، وفى القضاء على تجارة الرقيق وفتح تلك الجهات للتجارة المشروعة .

لهذه الاعتبارات السالفة الذكر أرسلت بعثة السير ساميويل بيكر إلى أعالى النيل ، وتمت حركة التوسع فى شرق أفريقيا وعلى طول ساحل البحر الأحمر وساحل افريقيا الشرقى ، وأسندت لغوردون حكمدارية مديرية خط الأستواء ثم حكمدارية عموم السودان .

أما عن بعثة السير ساميويل بيكر العسكرية (أوائل عام ١٨٦٩)

(1) Gordon, Letters of Gen. Gordon to his sister P. 90.

فأهميتها ترجع الى أنها تعتبر الخطوة الأولى فى سبيل تشييد صرح الامبراطورية المصرية فى القارة الأفريقية . كما أنها من ناحية أخرى تعتبر الحلقة الأولى فى سلسلة الفتوحات التى قامت بها مصر ، والتى انتهت بتطويق الحبشة فى النهاية بالممتلكات المصرية من جميع الجهات .

تضارب الآراء حول أهداف البعثة :

ورغم ان عدد جنود البعثة لم يكن يتجاوز ١٦٤٥ جنديا[1] الا أنها أثارت اهتمام دول أوروبا وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تهتم بشئون مصر فى تلك الفترة بصفة خاصة ، نظراً لاستخدام عدد كبير من ضباطها فى الجيش المصرى ، ولازدياد التبادل التجارى بين مصر والولايات المتحدة اذ ذاك .

فقد أشار المستر تشارلز هيل Charles Hale قنصل أمريكا الجنرال بمصر فى تقرير بعث به الى وزارة الخارجية الامريكية بشأن تلك الحملة الى أنها تعتبر بداية تحقيق مشروع الخديو اسماعيل الكبير الذى يرمى الى اخضاع جميع البلاد المحيطة بوادى النيل . وأن احتلال بوغوص ماهو الا الخطوة الثانية فى هذا المشروع أو حلقة فى سلسلة الحركات التى تقوم بها الحكومة المصرية لاخضاع المناطق المحيطة بالنيل من منابعه الى مصبه . ويضيف الى

(1) Baker; Ismailia P. 8

ذلك بأن الحاق تلك المناطق بمصر يعتبر منة كبيرة بالنسبة لتلك البلاد ، ويحظى بتأييد الراغبين فى خيرها . وأهم من هذا كله فتح تلك البلاد المجهولة للتجارة العالمية ، نظرا لخصوبتها ووفرة مواردها الطبيعية ، كما سيقضى على تجارة الرقيق ، تلك اللعنة التى نكبت بها . وستزداد بذلك موارد البلاد المعدنية والزراعية ازدياداً كبيراً لصالح مصر ولصالح العالم الاوربى . ولكن هذا المشروع الكبير يقابل بمعارضة شديدة من قبل الحبشة [1] .

وفى رسالة أخرى يوضح قنصل أمريكا الجنرال بمصر المستر بيردزلى Beardsly لوزير خارجيته الغموض الذى يكتنف البعثة وجهل الدول الأوروبية بالأهداف الحقيقة التى ترمى اليها . ولكنه يعود فيؤكد بأنه مما لاجدال فيه أن غرض الحملة الرئيسى ، ادخال المناطق المحيطة بالنيل الابيض ومنطقة البحيرات تحت الحكم المصرى والتبعية المصرية ، مع ايجاد مواصلات منتظمة وآمنة بين تلك المناطق النائية ومصر لتشجيع الزراعة وتنشيط حركة التبادل التجارى والقضاء على تجارة الرقيق [2] .

على أن الخديو اسماعيل لم يأل جهدا فى توضيح أهداف الحملة للمستر بيردزلى - قنصل أمريكا الجنرال بمصر - فى مقابلات متعددة ، فأعرب له عن أمله فى أن يتبع السير ساميويل بيكر

(1) Amer. Doc. vol. 6 P. 272 Despt. No. 19 R. Beardsly to "Charles Hale" 16 Oct. 1872.

(2) Amer. Doc. vol. 7 - P. 111 Despt. No. 92 R. Beardsly to Hamelton Fish. Cairo, 7 May 1872.

بدقة التعليمات التى صدرت اليه ، وألا يولى مسألة القضاء على تجارة الرقيق الاهتمام الأكبر من تفكيره ، لأنها ستكون النتيجة الطبيعية لفتح تلك البلاد . فبعثته هى للعمل على استرضاء القبائل التى تقطن تلك الجهات وضمها لمصر . ولذا فان مهمته هذه تتطلب منه أن يكون حذرا وسياسيا فى معالجته الأمور ، وأن يعرف جيدا أن الهدف الرئيسى من بعثته هو تنمية المصالح المصرية فى أواسط أفريقيا ، وألا يأت بعمل يكون من شأنه تأخير تقدم الراية المصرية نحو الجنوب[1] .

ولكن مما أدهش الخديو أنه رغم التعليمات الواضحة الصريحة فقد تنكب بيكر الطريق السوى وسار على سياسة لاتجر إلا الخراب والدمار على تلك المناطق المفتوحة ، وتخالف ماسبق اصداره اليه من أوامر لضم تلك البلاد الى حكم مصر بطريق الترغيب، وألا يلجأ الى استخدام القوة الاعندالضرورة القصوى وأن يترك مكافحة تجارة الرقيق لوقت آخر ، بعد أن يستقر الحكم المصرى فى البلاد، وألا تكون تلك التجارةسببا فى اعلان الحرب على السكان بأى حال من الاحوال[2] .

ومن هذا يتضح أن ارسال مصر لهذه البعثة العسكرية لم يكن الهدف الاساسى منه القضاء على تجارة الرقيق كما يذكر بعض

(١) المصدر السابق .

(2) Amer. Doc. vol. 7 P. 111 Despt. No. 92 R. Beardsly to Hamelton Fish Cairo, 7 May 1873.

المؤرخين بقدر ما كان لفتح تلك البلاد وتنظيم تجارتها ووسائل النقل فيها وادخال النظم المتحضرة فى ادارة شئونها .

ويعلق قنصل أمريكا الجنرال فى تقريره لوزير خارجيته – على تصريحات الخديو السابقة ، بأن بيكر لم يراع تلك السياسة التى هدف اليها اسماعيل من وراء ارسال تلك البعثة ، فناصب الأهالى العداء ، وشن حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق ، فاضطربت تجارة العاج وريش النعام وهى أهم صادرات تلك البلاد نظراً لارتباطها ارتباطا وثيقا بتجارة الرقيق ، فعم السخط وزاد تذمر الأهالى ضد الحكم المصرى .

وفى حقيقة الأمر لم يكن بيكر مخلصا فى خدمته لمصر ولم يكن يهمه مراعاة مصلحتها فى تلك الجهات بقدر ما كان يهمه العمل على تقويض نفوذها واحلال النفوذ الانجليزى محله لو استطاع الى ذلك سبيلا .

وحدث أثناء قيام بيكر بمهمته أن حاصرته بعض القبائل الافريقية الضاربة على ضفاف النيل الأبيض وسدت عليه كل مسالك ، وأصبح فى مركز حرج ودقيق ، فرأت الحكومة المصرية أن تمد له يد العون ، وأن تبعث اليه بنجدة عسكرية تحت قيادة القائمقام بيردى S. Purdy عن طريق زنجبار لتتفادى بذلك العقبات التى تعترض سيرها فى طريق النيل . فأشيع فى ذلك الوقت أن قوة الحملة المزمع ارسالها تبلغ خمسة آلاف جندى مسلح . وقــد استلفتت

ضخامة العدد نظر بيردزلى قنصل أمريكا الجنرال بمصر وساورت نفسه الشكوك من نوايا مصر الحقيقية من وراء ارسال هذا العدد الكبير لنجدة بيكر . وعبر عن هذا القلـــق فى مقابلته لشريف باشا ناظر الخارجية المصرية فى ديسمبر ١٨٧٢ ، فأشار الى أن حملة بهذا العدد الكبير يصعب النظر اليها على أنها لمعاونة السير ساميو يل بيكر وليست لأى هدف آخر . فأكد له شريف باشا بأن الحمـــلة المشار اليها لايزيد عدد أفرادها عن مئة رجل فقط ، وأنها ستتخذ طريق زنجبـــار لتتفادى العقبات التى ستصادفها اذا ما تقدمت بطريق النيل[1] .

ويبـدو أن هذا التعليل الذى أفضى به ناظر الخارجية المصرية لم يجـد قبولا لدى القنصل الأمريكى الجنرال ، ففى ٥ مارس سنة ١٨٧٣ يبعث بيردزلى برسالة إلى وزير خارجيته هاملتون فيش Hamelton Fish يشير فيها إلى هذه الحملة المزمع ارسالها بقوله « بما أن الطريق المقترح لسير تلك الحملة يمر بزنجبار ، فليس من من اليسير الاعتقاد بأن هدفها نجدة السير ساميو يل بيـكر ، لانه أشيع بوجود تفاهم بين الخديو اسماعيل وسلطان زنجبار لاحباط بعثة السير بارتل فرير Sir Bartle Frere وأن لحملة القائمقام بيردى علاقة بهذا الموضوع[2] » .

(1) Amer. Doc. v. 7 Beardsly to hamelton Fish. Cairo Dec. 15,1878.

(2) Amer. Doc. vol. 7 P. 111 Despt. No. 92 R. Beardsly to Hamelton Fish. Cairo 7 May 1873.

ورغم الضجة الكبيرة التى أثارتها بعثة ساميويل بيكر العسكرية فلم تنجح فى مهمتها سوى فى اقامة بعض النقط أو المحطات العسكرية القليلة على طول الطريق الذى سلكته فى تقدمها نحو الجنوب مثل محطة التوفيقية (عند ملتقى نهر السوباط بالنيل الابيض) ومحطة غندوكرو ، ومحطة الابراهيمية ، ومحطة فويرا ، ومحطة ماسنجى . وذلك لتأمين الطريق التجارى بين الخرطوم ومنطقة البحيرات .

ولكن لسوء الحظ فقد فشلت هذه المحطات العسكرية لا فى تأمين الطريق فحسب ، بل وفى تأمين سلامتها هى ضد غضبة الأهالى، فلم يمض على عودة بيكر من مهمته عام واحد حتى أصبحت تلك الحاميات عاجزة عن مغادرة مواقعها أو الاتصال بعضها ببعض بسبب عداء القبائل الشديد لها لما نالها من عسف بيكر وبطشه .

وبهذا تفشل تلك البعثة التى كلفت مصر مايزيد عن ٨٠٠ الف جنيه مصرى والتى لم تجن مصر من ورائها سوى غضب الأهالى لاستخدام اسماعيل لرجل (نصرانى) فى مكافحة تجارة الرقيق مما «أصاب الدين فى الصميم وزلزل قواعده»[١] . هذا بالاضافة الى المخاوف التى أثارتها تلك البعثة فى نفوس الاحباش ، والى زيادة التوتر على الحدود بين مصر والحبشة .

(١) محمد احمد الجابري — فى شأن الله ص ٤٦ .

توسع مصر على سواحل البحر الاحمر

كان امتداد النفوذ المصرى على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر فى السبعينات من القرن التاسع عشر من أهم الأسباب التى زادت العلاقات المصرية الحبشية سوءا . بل ان اهتمام مصر بشئون البحر الأحمر قد بدأت منذ ايام محمد على ، فقد عملت مصر على تطهير هذا البحر من القراصنة وتأمين سلامة السفن التجارية المارة به ، لمحاولة استرجاع ماكان لمصر من مركز تجارى ممتاز قبل كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

ومنذ أواخر عام ١٨٦٩ أخذت مصر توجه عناية خاصة للملاحة فى البحر الأحمر توطئة لبسط سيطرتها على سواحله ، ومما يدل على هذا الاهتمام الأمر الذى أصدره الخديو اسماعيل الى ناظر البحرية فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٦ (ديسمبر سنة ١٨٦٩) اذ يقول : « حيث أن البحر الأحمر فى نظر الحكومة المصرية أكثر اكبارا وأهمية من سائر البحار وأن الوقوف على احواله ومواقعه واكتساب المعلومات للسير والسفر فيه أمر واجب على ضباطنا البحريين . فبناء عليه اقتضت ارادتى أن يعين بعد الآن الناشئين من المدرسة البحرية ليتمرنوا على السير والسفر فى البحر المذكور مدة سنتين أوسنة ونصف سنة ليكتسبوا المعلومات اللازمة فى احواله ومواقعه ، وأن تتخذ هذه الأصول قاعدة مستمرة ومرعية الاجراء الى ماشاء الله لجميع الناشئين من المدرسة المذكورة[1] »

(١) امين سامى باشا : تقويم النيل « عصر اسماعيل » المجلد الثانى . الجزء الثالث « إرادة لناظر البحرية فى ٢٨ شعبان ١٢٧٦ — ديسمبر ١٧٦٩ » .

ضم بوغوص «سنهيت»

وتعزيزاً لتلك السياسة عين الخديو اسماعيل فى ابريل سنة ١٨٧١ منسنجر حاكما لمصوع وأوصاه ببذل الجهود للقضاء على تجارة الرقيق فى المناطق المحيطة بها. وقد وجد منسنجر أن من المتعذر عليه القيام بتلك المهمة طالما كان اقليم بوغوص أو (سنهيت) خارجاً عن سلطان الحكومة، ولذا وطد العزم على الاستيلاء عليه وضمه لممتلكات مصر. فخرج من مصوع فى يونيه سنة ١٨٧٢ على رأس قوة حربية، واستطاع احتلال العاصمة قرن Keren دون مقاومة تذكر. ثم أخذ فى انشاء حكومة مستقرة قادرة على حفظ النظام فى تلك الجهات.

واستتبع ذلك فى فبراير سنة ١٨٧٣ تعيين منسنجر محافظاً لشرقى السودان، ويشمل اختصاصه سواكن وراحيتا (رهيطة) وقرن وكسلا. ثم عمل بعد ذلك على ضم منطقة آيليت. وعندما فتحت مصر إقليم هرر — كما سيأتى ذكره — أصبحت الحبشة محاطة من جميع الجهات بالممتلكات المصرية، ولم يكن الموقف بالنسبة للحبشة مما يحتمل السكوت عليه أو التسليم به كأمر واقع. فدخلت فى نزاع مع مصر، وادعت فى ذلك الوقت ملكيتها لبوغوص وآيليت وأوسه. وأن مصر باستيلائها على تلك المناطق إنما قد اعتدت على أراض ليست ملكا لها وبدأت تشن الغارات المتكررة على الحدود المصرية، تدفعها فى ذلك الرغبة فى اختراق هذا النطاق

الحديدى الذى فرض حولها . وسيؤدى استمرار الاحتكاك بين الطرفين الى نشوب الحرب المصرية الحبشية التى سنتعرض لهـــا بعد قليل .

ضم زيلع

وتحقيقا لرغبة مصر فى السيطرة على سواحل البحر الأحمر لاحكام الحصار حول تجارة الرقيق وليتسنى لاسماعيل غلق جميع الموانىء فى وجه تجار الرقيق أن سعى لدى الباب العالى لضم ميناء زيلع اليه، وكان تابعا للواء الحديدة فى ذلك الوقت . وفى يوليه سنة ١٨٧٥ وافق السلطان العثمانى على ذلك فى مقابل مبلغ سنوى تدفعه مصر ويقدر بنحو ١٣٫٣٦٥ ليرة تركية (١٥٠٠ جنيها مصريا) .

كذلك بعث الخديو اسماعيل بقوة حربية صغيرة تحت قيادة اللواء البحرى رضوان باشا على إحدى المراكب الحربية المصرية إلى ميناء بربره فاستولى عليه، ثم عين محافظاً له . وقد كتب الضابط الانجليزى وود Wood الى السير هنرى أليوت Sir Henry Elliot سفير انجلترا بالآستانة فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول : « ان التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربره يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر[1] » .

كما أرسل قنصل أمريكا الجنرال بمصر بتقرير الى وزارة

(١) دكتور محمد صبرى — مصر فى أفريقيا الشرقية ص ١٨ .

الخارجية الأمريكيه فى ١٧ يوليه سنة ١٨٧٥ يعلق فيه على ضم زيلع الى ممتلكات مصر بقوله : « تعتبر زيلع آخر موطىء لقدم الدولة العثمانية فى أفريقيا ، وأن امتلاك مصر لهذا الميناء له أهمية كبرى بالنسبة لها من الناحيتين السياسية والتجارية ، إذ سيصبح ساحل أفريقيا المطل على البحر الأحمر كله تحت السيطرة المصرية. وزيلع تقع تجاه عدن تقريباً وتعادلها فى الأهميـــة وتعتبر الميناء الوحيد فى هذه المنطقة من الساحل ، وتقوم بتبادل السلع والمتاجر مع الموانى العربية ، كما أنها تعتبر مخرجا للأقاليم الواسعة فى الداخل[1] .

فتح اقليم هرر

ولم تكتف مصر بالسيطرة على ساحل البحر الأحمر الغربى بأكمله ، بل تطلعت الى ماوراء ذلك : الى الساحل الأفريقى المطل على خليج عدن وكذلك السواحل الواقعة على المحيط الهندى . وتم تحقيق هذا المشروع بإرسال حملة عسكرية على رأسها رؤوف باشا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ من ميناء زيلع لفتح اقليم هرر ، تتكون الحملة من خمسة بلوكات بياده و ٢٣٦ جنديا من جنود الباشبوزق و ٣٠٠ جمل بطاريتين جبليتين[2] .

تمكنت تلك القوة العسكرية القليلة العدد من اخضاع هذا

(1) Amer. Doc. vol. 10 - P. 145 Despt. No. 337 Hamelton Fish to R. Beardesly, 17 July 1875.

(2) Sabry; L'Empire Egyptienne sous Ismail P. 418

الاقليم ودخول عاصمته هرر فى ١١ اكتوبر سنة ٨٧٥ دون عناء كبير، وكان عدد سكانها « يزيد عن ٣٠٫٠٠٠ نسمة . كما خضع لطاعة الحكومة المصرية ٦٢ قبيلة يبلغ تعدادهم حوالى واحد ونصف مليون نسمة ... وكوفىء رؤوف باشا برتبة الفريق وتعيينه حكمداراً على هرر وتعيين أميرها محافظاً لها[1] » . وقد فسر بيردزلى قنصل أمريكا الجنرال بمصر وقتئذ ، استيلاء مصر على إقليم هرر بأنه ينطوى على تحرش من جانبها بالحبشة[2] .

تعيين غوردون حكمداراً لمديرية خط الاستواء:

وارتبط تعيين غوردون باشا حكمداراً عاما لمـــديرية خط الاستواء فى عام ١٨٧٤ بمشروع ربط منطقة البحيرات بالخرطوم شمالا وبالساحل الصومالى شرقا ، وذلك لفتح تلك المناطق للتجارة المشروعة مع العـالم الخارجى ، وإنشاء شبكة من النقط العسكرية على طول الطريق تأميناً لسلامة المتاجر المـــارة بها . وقد نجح غوردون فى خلال المدة التى أمضاها فى حكمداريته (١٨٧٤-١٨٧٦) فى تعزيز النقط والمحطات العسكرية التى أنشأها بيكر من قبل، وفى إنشاء محطات أخرى على طول مجرى النيل مثل محطات السوباط

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ فى ١٦ شوال سنة ١٢٩٢ « ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

(2) Amer Doc. vol. II despt. No. 378 Beardsly to Hamelton Fish, Cairo Nov. 26, 1875.

وشمي ونصر ومكاراكه وبور ولاتوكا ولادو والريجاف ودوفيليه ولابوريه وماجنجو ومرولى ودوباجه (عاصمة أوغنده وتقع على الشاطىء الشمالى لبحيرة فيكتوريا) .

بعثة ميكلوب العسكرية :

هذ فيما يتعلق بالطريق الأول وهو الطريق الشمالى ، أما عن الطريق الثانى فقد طلب غوردون من الخديو اسماعيل فى يناير سنة ١٨٧٥ أن يأذن له بتنفيذ هذا المشروع . واستقـر الرأى على أن ترسل مصر حملة إلى مصب نهر جوبا (الجب) على أن تتقدم فيـه إلى أقصى حدممكن للوصول إلى منطقة البحيرات، وكلف ما كيلوب باشا القيام بهذه المهمة بمعـــاونة الضابط الأمريكى شاييه لونج Chaillé Long . وغادرت الحمـلة ميناء السويس على رأس قوة حربية مكونة من أورطة واحدة تمثل الأسلحة الثلاثة[١] .

وقد تـكتم الخديو اسماعيل أمر الحملة حتى أن شاييه لونج نفسه لم يكن يعلم بهدفها إلا بعد أن قطع مسافة خمسمائة ميل جنوبى ميناء السويس . وعندما وصل الضابط الأمريكى إلى بربره قام بتسليم تعليمات الخديو إلى ما كيلوب فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٥. وفى بضعة أيام زودت الحملة ببلوكين من الجنود وبعض المدافع وأبحرت فى اتجاه رأس جوردفوى حيث وصلته فى ٤ أكتوبر[٢] من نفس

(1) Chaillé-Long ; L'Egypt et se2 provinces perdués P. 116

(٢) المصدر السابق ص ١١٦ .

السنة ، ثم تسلق بعض رجالها قمة المرتفع المطل على الرأس ورفعوا فوقه العلم المصرى إيذاناً بوضع تلك المناطق تحت سلطة الحكومة المصرية[١] . واحتلت الحامية فى طريقها بلدة براوه دون مقاومة فى ٢٥ أكتوبر ، وكان يقوم بحماية تلك البلدة بعض الجنود التابعين لسلطان زنجبار .

وقد حاول رجال الحملة بعد ذلك الصعود فى مجرى نهر جوبا ، ولكن الرياح حالت بينهم وبين بلوغ هذا الهدف ، فارتدوا إلى الجنوب حيث توجد قسمايو (بورت اسماعيل) ووجدوا بها حامية مكونة من من ٤٠٠ جندى تابعين للسلطان سعيد برغش سلطان زنجبار . وسكان تلك البلدة يتألفون من حثالة سكان البحر الأحمر ومعظمهم من تجار الرقيق ولهذا كانت قسمايو مركزاً هاماً لهذه التجارة فى شرق أفريقيا[٢] .

لم تجد الحملة كبير عناء فى الاستيلاء على هذه البلدة دون إراقة دماء حيث وجدوا بها مايقرب من أربعمائة نفر من الأرقاء على وشك التصدير إلى الخارج فقامت بإطلاق سراحهم ، وإنزال علم زنجبار ورفع العلم المصرى مكانه فى احتفال أقيم بهذه المناسبة .

(١) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

موقف غردون من الحملة

وقد زودت الحملة بقوة إضافية تبلغ ١٣٠٠ جندى تحت قيادة فريدريجو باشاوقد عسكر ما كيلوب على بعد ١٦ ميلا من قسمايو فى انتظار تعليمات الخـــديو اسماعيل ، لمواصلة التقدم فى النهر والوصول إلى منطقة البحيرات ورغم وضع تلك الحملة تحت اشراف غردون من الناحية الرسمية ، فانه لم يقدم لها أى عون حربى أومادى . ويعزو شاييه لونج هذا الإهمال أو التجاهل من جانب غردون إلى احتمال وصول تعليمات من قبل الحكومة الانجليزية بهذا الخصوص .

تدخل انجلترا ونهاية الحملة

وبعد صدور الأوامر للحملة تقدمت نحو ١٥٠ ميلا فى نهر جوبا ، وفى خلال ذلك قام الضابط المصرى حسن واصف برسم خريطة لهذا النهر [١] . وعندما وصلت الحملة إلى هذا الحد تلقى ما كيلوب من الخديو اسماعيل أمراً بالانسحاب هذا نصه : «انسحب بقواتك وارجع إلى مصر [٢] » دون أن يذكر الأسباب . ويرجع سبب سحب تلك الحملة ـ بطبيعة الحال ـ إلى تدخل الحكومة الانجليزية بحجة المحافظة على حقوق سلطان زنجبار توطئة لإعلان

(1) Abbaté ; Le Sudan sous le Règne du Khedive Ismail P. 18.

(2) Chaillé-Long ; L'Egypte et ses provinces Perdues P. 150.

حمايتها على زنجبار وملحقاتها فى سنة ١٨٩٠ فانسحبت الحامية من جوبا فى ٥ يناير سنة ١٨٧٦ . وبذلك أخفقت الحملة فى تحقيق أغراضها رغم الجهود التى بذلتها مصر، ولم تجن الحكومة المصرية من ورائها سوى تدخل بريطانيا وعداوة الحبشة .

وفى حقيقة الأمر فإن سياسة مصر فى السيطرة على سواحل البحر الأحمر أدت الى توجس الحبشة خيفة من تحركات القوات المصرية الدائمة على طول تلك السواحل . وماترتب عليه من الاحاطة احاطة تكاد تكون تامة بالحبشة . وفى نفس الوقت فقد ازداد اهتمام انجلترا بالبحر الأحمر وبما يجرى على شواطئه منذ ولاية محمد على ، فهو بالنسبه لها الطريق الهامة المؤدية الى الهند ، ولذا فقد عمدت فى عام ١٨٣٨ الى الاستيلاء على عدن ، وكذلك استولت أيضا على جزيرة موسى القريبة منها والتابعة لسلطان محمد والى تاجورة فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ ثم ألحقتها بجزيرة أوباط التابعة لحاكم زيلع فى ٣ سبتمبر من نفس السنة . فعلت كل هـذا لتأمين سلامة مواصلاتها فيه وللتحكم فى مدخله الجنوبى .

على أن هذا الاهتمام من جانب انجلترا قوبل باهتمام مماثل من قبل فرنسا وايطاليافى السنوات التى أعقبت ذلك . فأقدمت فرنسا على شراء أبوك من شيخ رهيطة فى سنة ١٨٦٢ . وحذت حذوها ايطاليابعصب فى سنة ١٨٧٠ . بل ان ايطاليا كانت تريد ان تتخذ من عصب نقطة ارتكاز لمباشرة عملياتها التوسعية لاحتلال الساحل

الصومالى تحت ستار البعوث العلمية التي أرسلت الى تلك المناطق لتحقيق هذا الغرض . فأرسلت الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية Royal Italian Geographical Society المركيز انتينورى Marquis Antinori لكشف الطريق بين ميناء زيلع وشوا . ولكن أبا بكر شيخ زيلع لم يعمل على تسهيل مهمة البعثة لأنه كان يشك فى نواياها. ولذا فقد تعرضت للسلب والنهب أثناء اجتيازها لتلك المناطق . وأجريت بعض التحقيقات بشأن هذا الحادث ،واهتمت به الحكومة الايطالية وكلفت قنصلها الجنرال بمصر المسيو دى مارتينو De Martino بالسفر الى زيلع للمعاونة فى تلك التحقيقات الجارية بشأن البعثة (1) .

وفى نفس الوقت فقد أرسلت الجمعية الجغرافية الملكية الايطالية أحد رجال الحرب الايطاليين ويدعى سيلا Seylla على رأس بعثة ايطالية لمعاونة بعثة المركيز انتينورى . وطلب قنصل ايطاليا الجنرال بمصر من زميله المستر ڤيڤيان القنصل الجنرال الانجليزى تأييد مساعيه لدى الخديو اسماعيل لبسط مصر حمايتها الفعلية على هذه البعثة ، بعد أن أكد له بصفة قاطعة عدم وجود أهداف سياسية لها (2) . وقد ازدادت أطماع ملك الدول الاوربية فى ممتلكات مصر الافريقية وما يجاورها . وعلى وجه الخصوص بعد أن فقدت مصر هيبتها الحربية أمام الحبشة .

(1) F. O. C. Vivian to the Earl of Derby. Political No. 37 Cairo Feb. 15,1877.
(2) F. O. C. Vivian to the Earl of Derby. Political No. 62 Cairo March 21.1877.

الفصل الثالث

النزاع بشأن الحدود

كان للسياسة التوسعية التي سارت عليها مصر كما ذكرنا أثرها فى توتر العلاقات بينها وبين الحبشة ، وخصوصا بعد أن تمكنت مصر من ضم ميناء مصوع فى عام ١٨٦٥ ، ذلك الميناء الذى تدعى الحبشة ملكيته لأنه يكاد يكون المنفذ الوحيد للحبشة على البحر الأحمر . وازدادت هذه العلاقة سوءا عندما سمحت الحكومة المصرية للحملة الانجليزية على الحبشة من عبور أراضيها فى عام ١٨٦٨ وتقديم المساعدة اللازمة لها فى نضالها ضد الحبشة . ولهذا أخذ الملك يوحنا الذى خلف تيودورس على عرش الحبشة يشجع الرؤس الموالية له بالهجوم على الحدود المصرية . فقام أحدهم ويدعى ولد مراج بمهاجمة كوفيت التابعة لمديرية التاكة الغربية وأخذ ينهب القرى ويقتل الرجال ويسبي النساء والأطفال[1] .

وعلى أثر تلك الاعتداءات التى وقعت على القرى السودانية الآمنة بعث الخديو اسماعيل بخطاب الى الملك يوحنا يطلب منه

---

(١) المحفوظات التاريخة بالقصر الجمهورى دفتر ٤٣ عابدين صادر . إرادة إلى رياض باشا بالآستانة . وثيقة تركية رقم ٧١ فى ١٨ جمادى الآخرة عام ١٢٨٩ « أغسطس عام ١٨٧٢ ..

اعادة الأموال والأمتعة التي نهبت وإنزال العقاب الرادع بالمعتدين. فلم يكترث يوحنا بالرد عليه . فاضطرت الحكومة المصرية الى وضع أورطتين من الجنود على الحدود الفاصلة بين مصر والحبشة لصيانة أرواح الأهالى وممتلكاتهم وتأمينا للتجـــارة من سطو المعتدين[1] .

وفى ذلك الوقت ترددت الشائعات القوية فى الأوساط الانجليزية بأن مصر تعتزم غزو الحبشة ، ووجدت هذه الشائعات طريقها الى مجلس العموم البريطانى ، وانتقلت منه الى الصحافة[2] ، وأحدثت دويا كبيرا لدى الرأى العام الانجليزى . وقد علل قنصل أمريكا الجنرال بمصر المستر بيردزلى فى خطاب بعث به الى وزير خارجيته فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٢ سبب قيام تلك الضجة بأن انجلترا ترى فى التحركات المصرية على حدود الحبشة خطرا على سلامتها[3] .

مصر في امتلاك بوغوص

ولما كانت الحكومة المصرية تدرك أهمية ربط ميناء مصوع على البحر الأحمر بالنيل فى تنشيط التجارة واقرار الأوضاع فى

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(3) Amer. Doc. - vol. 6 - P. 255 Despt. No. 9 R. Beardsly to Hamelton Fish Cairo 31, Aout 1872.

تلك البلاد ، فقد شرعت فى تنفيذ هذا المشروع محاولة تذليل كل العقبات التى تقف فى طريقه . وكان لابد لهذا الخط أن يمر باقليم بوغوص الذى تدعى الحبشة ملكيته . وما أن وصل نبأ هذا المشروع إلى الصحافة الاوربية حتى ثارت وصورت ما أعتزمت مصر القيام به محاولة من قبل مصر لاحتلال الحبشة [1].

وقامت مصر فى ذلك الوقت تدافع عن حقها لدى الباب العالى ولإثبات ملكيتها لهذا الاقليم منذ أيام محمد على ، فبعث الخديو اسماعيل إلى ممثله بالآستانة فى هذا الشأن يقول « لقد جاء فى البيور بلدى (كتاب النولية) الذى كتبه حكمدار السودان الأسبق المرحوم احمد ابو ودان المؤرخ فى سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢) إلى شيخ بنى عامر تعداد لجميع هذه الاراضى واحالتها إلى رئاسة الشيخ المذكور . وعلى هذا فتكون تابعياتها للحكومة المصرية ثابتة من جهة الإدارة ومن جهة السجلات [2] » .

ويذكر الخديو اسماعيل فى موضع آخر أن تلك الجهات التى كانت تابعة لمصر فى عهد محمد على قد خرجت عن طاعة مصر فترة من الوقت بدعوى الاستقلال عن مصر وعن الحبشة على السواء .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين من الجناب الخديو إلى رياض باشا بالآستانة . وثيقة رقم ٢٨٢ فى ١٩ جمـاد ثانى سنة ١٢٨٩ « أغسطس سنة ١٨٧٢ » .

(٢) المصدر السابق .

ولكنها وجدت ألا قبل لها على رد عدوان الأحباش فعادت ثانية إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية[١] .

ويؤيد المستر بيردزلى قنصل أمريكا الجنرال بمصر ملكية مصر لتلك المنطقة منذ أيام محمد على بقوله : « إن أقليم بوغوص أرض مصرية ، وأن استيلاء مصر عليها إنما يؤكد حقا ظل مهملا طوال فترة حكم سعيد ، حيث انسحبت القوات المصرية من تلك البقاع بسبب تدخل النفوذ الفرنسى لصالح بعض البعثات التبشيرية الكاثوليكية . كما لم تكن حكومة سعيد باشا على استعداد لشن حرب داخلية لحماية تلك البعثات[٢] » . ويضيف بأنه لا يوجد لديه من الاسباب الوجيهة التى تدعوه إلى توقع غزو مصر لأراضى الحبشه[٣] .

وقد دافعت مصر عن وجهة نظرها دفاعا قويا ،وطالب الخديو من الباب العالى بأن يوضح هذا الموضوع لسفراء الدول الأوربية إذا ما حاولوا التدخل فيه وأن يعمل على تأييد وجهة نظره وألا يتركه لمواجهة سفراء الدول الأوربية وحده[٤] .

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين مذكرة خصوصية للباب العالى ص ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة ١٢٨٩ «يناير ١٨٧٣»

(2) Amer. Doc. vol. 7 Despt. No. 46 R. Beardsly to Hamelton Fish Cairo Dec. 12,1872.

(٣) المصدر السابق .

(٤) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين من الجناب الخديو إلى رياض باشا بالآستانة . وثيقة رقم ٢٨٢ فى ١٩ جمـاد ثانى سنة ١٢٨٩ « أغسطس ١٨٧٢ » .

وبعد مضى ثمانية شهور على ارسال كتاب الخديو الى يوحنا ملك الحبشة ، أتى الرد مخيبا لآمـــال مصر ومتضمنا فى شىء من التحدى اعتراف يوحنابتحريضه على مهاجمة الحدود المصرية وبأنه أوعز إلى ولد مراج باقتحام الحدود المصرية والقيام بأعمال السلب والنهب لتأديب أهالى تلك المنطقة وادعى ايضا بأنأقليم بوغوص من ممتلكات الحبشة وكذلك بعض الموانىء ومنها ميناء زولا الذى وضعت مصر يدها عليه ، وفى ختام كتابه أعلن عن عزمه فى التمسك به وعدم التخلى عنه . وبذل الجهود لاسترداده[1] .

وقد أوضحت مصر فى ردها على هذا الكتاب أن ما ادعته الحبشة من ملكية تلك المناطق لاأساس له من الصحة،واستشهدت فى ذلك بما سبق أن طلبته انجلترا من الحكومة العثمانية السماح لها بإنزال جنودها بميناء زولا فى الحرب الانجليزية الحبشية . ولو لم تكن الدولة العثمانية تسيطر على تلك البلاد لماطالبت الحكومة الانجليزية بهذا المطلب[2].

وأخيرا رأت مصر بعد أن أعيتها الحيل أن تقابل التحدى بالمثل وأن تنذر الملك يوحنا بضرورة ، انزال العقاب بولد مراج على مااقترفه وأن يقدم ترضية حقيقية للحكومة المصرية وأمهلناه

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين صادر . مذكرة خصوصية للباب العالى ص ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة عام١٢٨٩ « يناير عام ١٨٧٣ » .

(٢) المصدر السابق .

ثلاثة شهور من تاريخ وصول كتابنا اليه . وبينا له أنه اذا لم يفعل ماطلبناه منه ، فاننا قد اصدرنا الأمر للعسكر المرابطين على الحدود بأن يقتحموا عند انتهاء مدة المهلة بلاده ويدخلوها وأن يحتلوا أراضى الحماسين المتصلة ببلاده لتكون رهنا مادنا بأيدينا إلى أن يجيب طلباتنا صيانة لحقوق الدولة والأهـــالى الصريحة الواجبة الرعاية[1] » .

دعا الخديو اسماعيل منسنجر باشا مدير عموم شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر ـ وكان يشغل منصب قنصل دولتى انجلترا وفرنسا بمصوع قبل التحاقه بخدمة الحكومة المصرية ـ للتشاور معه فيما يجب اتخاذه من اجراءات ازاء مسلك الملك يوحنا. وعما إذا كان من الممكن صيانة حقوق مصر دون الالتجاء إلى استخدام القوة ، وقد بذلت مصر ما أمكنها من جهد للوصول إلى تحقيق هذا الهدف ، حتى لا تضطر مرغمة إلى اللجوء للقوة[2] .

تحريض الحبشة على العدوان

وقد استغل بعض المحيطين بالملك يوحنا فرصة ارسال مصر لبعض الجنود لحماية حدودها المتاخمة للحبشة ، وصوروا له هذا العمل بأنه تحرش من قبل مصر وأن المقصد منه « ان تمحوا بتلك المحاولة وجود دولة نصرانية باهرة المستقبل من صحيفة

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

أفريقيا[1] » ويعلق الخديو اسماعيل فى رسالته للبـاب العالى على ذلك بقوله « إن نشر هـذه الأقاويل والأراجيف بصور مختلفة فى أوربا حـدا ببعض الدول الفخيمة بأن تعيرها سمع الاهتمام فقامت تتساءل عن صحتها من عدمه[2] » .

ومن هؤلاء الرجال الذين تمتعوا بمكانة كبيرة لدى يوحنا ، وممن شجعوه على مناصبة مصر العداء كركمان Kirkman الضابط البريطانى السابق بالحملة الانجليزية على الحبشة والذى دخل فى خدمة الملك، يوحنا بعد انتهاء تلك الحرب ، وأصبح مستشاراً له وسفيراً من قبله لدى الدول الاوربية لشرح شكواه وبيان وجهة نظره فيما تقوم به مصر على حدود بلاده، وتوكيد ادعائه فيما يتعلق بسواحل البحر الأحمر ومقاطعه بوغوص .

وقد مر كركمان بمينـــاء الاسكندرية فى طريقه الى انجلترا وأوضح للمستر استانتون قنصل انجلترا الجنرال بمصر بأن الملك يوحنا يعتبر احتلال مصر لاقليم بوغوص غزوا للاراضى الحبشية وبأنه مقتنع من نصرة الدولة الاوربية له[3] .

كذلك أخذ القساوسة الفرنسيون الكاثوليك باقليم بوغوص يحرضون ملك الحبشة على العدوان وعلى رأسهم القس دفلو الذى

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(3) Bulletin de l'Institut Egyptien T. V. Année 1911

وعد يوحنا بمساعـــدة فرنسا له اذا ماسمح لهم بمزاولة عملهم فى التبشير وإقامة الكنائس داخل الاراضى الحبشية [1] .

ومن المحرضين على العدوان ايضا قنصل فرنسا بمصوع المسيو سارزيك ،فقد سعى لدى يوحنا لاقناعة بضرورة الاستعداد للحرب مبينا له بأن الحكومة الانجليزية لن تسمح لمصر بالاعتداء عليه .

أثار تعزيز مصر لقواتها الحربيـة على حدود الحبشة مخاوف الحكومة الانجليزية فبعثت بمذكرة رسمية الى الحكومة المصرية تطلب تفسيرا لتلك التحركات وعن القصد من وراء تلك العمليات. فأجابت الحكومة المصرية على هذا التساؤل بالأدلة والبراهين على أنها لاتنوى امتلاك الحبشة ، ولكن كل ماتهدف اليه هو تقوية الحاميات المصرية تمكينا لأداء مهمتها فى صد كل عدوان يقع على أراضيها [2] .

وكانت الحكومـــة الانجليزية تميل الى مساعدة الحبشة لاعتبارات دينية فهى دولة مسيحية وأن الحكومة الانجليزية تتبع سياسة خاصة فى العطف على الشعوب المسيحية . خصوصا وأن

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٣ عابدين ــ وارد تلغرافات عربى شفرة رقم ٢٧٥ ص ٤٣٩ ملحق ٢ فى ١٧ شعبان سنة ١٢٩٣ .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين صادر مذكرة خصوصية للباب العالى ص ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة عام ١٢٨٩ « يناير ١٨٣ » .

الجرائد الاوربية قد صورت النزاع القائم بين مصر والحبشة بصورة الحرب الصليبية الناشبة بين دولتين أحداهما مسلمة معتدية يجب ردعها وتأديبها والثانية مسيحية معتدى عليها يجب مساندتها والمحافظة عليها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الملك يوحنا سبق أن ساعد الحكومة الانجليزية فى حربها ضد ثيودورس ملك الحبشة السابق خلال الحملة الانجليزية الحبشية[1].

استغلت مصر فرصة انشغال الملك يوحنا فى قتال بعض قبائل القالا ، وبعثت بقوة حربية قوامها ١٥٠٠ رجل فى سنة ١٨٧٤ تحت قيادة منسنجر لاحتلال اقليم سنهيت أو بوغوص الذى كان تابعا لها من قبل ، تنفيذاً لمشروع ربط ميناء مصوع بخط حديدى مع كسلا على النيل . وقام منسنجر ببناء قلعة حصينة فى بلدة قرن عاصمة الاقليم[2] . وفى نفس الوقت اشترى مقاطعة آيلت التى تقع بين منطقة الحماسين ومصوع من حاكمها ، فأثار هذا العمل ثائرة يوحنا وأخذ فى مهاجمة الحدود المصرية هجمات متكررة .

ورأت مصر فى ذلك الوقت الدخول فى مفاوضات مع يوحنا لفض النزاع بينهما بالطرق الودية ، وأرسلت الأميرالاى يوسف مسرور لهذا الغرض . ولكن الضابط الانجليزى كركمان الذى كان يقوم بوظيفة المستشار الخاص ليوحنا عمل على إحباط وصول الطرفين إلى اتفاق بالطرق السلمية ، على أمل أن تقوم الدول الأوربية بنصرة الحبشة إذا ما طلب الملك يوحنا تدخلها فى الأمر .

(1) Amer Doc. vol. 6 P. 272 Despt. No. 19 R. Beardsly to Charles Hale Oct. 16,1872.
(2) Bulletin de l'Institut Egyptien. T.V. Année 9111

الانتظام للسلاح

وقد مال يوحنا إلى الصلح اثناء غياب كركمان فى رحلته إلى دول أوربا ، ولكنه قطع محادثاته فجأة بسبب الأنباء التى وردت اليه من كركمان باوربا بتوقع تأييد الدول الاوروبية للحبشة فى نزاعها مع مصر . وبذلك فشلت المفاوضات وبدأ الملك وأعوانه يشنون الغارات المتعاقبة على حدود مصر لنهب القرى الآمنة وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال .

لم تجد الحكومة المصرية بدا من الالتجاء إلى القوة لصد اغارات الحبشة ووقف الأعمال العدوانية على حدودها . وصمم الخديو اسماعيل على تسيير حملة حربية على الحبشة . وقد صور له الملتفون حوله من المتملقين ورجال الحاشية ـ فى كثير من المبالغة ـ مدى قوة الجنود المصريين ، وزعموا له بأن الأورطة المصرية الواحدة توازى فى قوتها عشرين الفـــا من الاحباش . كما أشاد منسنجر ايضا بقوته وبمقدرته على غزو الحبشة جميعها بأورطتين مصريتين [١] .

وإذا ما قارنا بين تلك الاقوال التافهة التى أدلى بهـــا رجال الحاشية وبين امكانيات الحملة الانجليزية الحبشية التى اشرنا اليها

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين مذكرة خاصة من الجناب الخديو إلى الصدر الأعظم رشدى باشا وثيقة رقم ٤٢٠ فى ١٢ محرم سنة ١٢٩٠ « ١٢ مارس سنة ١٨٧٣ » .

من قبل ، لو جدنا أن الحكومة الانجليزية قدرت قوة الحبشة حق قدرها فأعدت جيشا كبيرا قوامه ١٤ر٦٨٣ جنديا، يتبعهم ١٨ر٠١٦ من الخدم و٣٦ر٠٩٣ من دواب النقل و٤٤ فيلا . وبلغت نفقاتها تسعة ملايين من الجنيهات . إذا ماعلمنا ذلك أدركنا بسهولة مدى سذاجة هذا القول ، ومدى التضليل الذى دبرته الحاشيه بمعاونة منسنجر للزج بمصر فى حرب فاشلة ضد الحبشة . ويذكر الجنرال فون تورنيزن Von Thurneyssen بأن منسنجر كان متزوجا من امرأة حبشية من اقليم بوغوص ، ومما لا شك فيه أن لوالديها دخل كبير فى السياسة التى اتبعها منسنجر اضم تلك البلاد إلى ممتلكات مصر [1] .

(١) المصدر السابق .

الفصل الرابع

حملة أرندروب

كان لتلك التصريحات الجوفاء التى القيت على مسامع الخديو اسماعيل أثرها فى عدم اهتمام المسئولين باعداد حملة قوية لهذا الغرض، فكل ماأمكن جمعه من الجنود بلغ حوالى ٤٠٠٠ جندى تحت قيادة الاميرالاى ارندروب Arendrupp وكان ضابطا صغيرا فى سلاح المدفعية الدنمركية سابقا، ثم خدم مايقرب الخمس سنوات فى هيئة اركان حرب الجيش المصرى. ويذكر الجنرال فون تورنيزان عن ارندروب «بأنه كان ضابطا ممتازا فى سلاح المدفعية، ولكن ثقافته نظرية ولم يقم بتطبيقها بصفة عملية. ولذا فان من الخطأ الجسيم أن نعتبره مسئولا عن الهزيمة، فبهذه الوسائل والامكانيات غير الكافية لا يستطيع أى فرد فى العالم أجمع أن يحرز النجاح[1]».

كذلك يعلق الجنرال لورنج - وهو ضابط امريكى ممن التحقوا بخدمة الجيش المصرى - على اختيار الاميرالاى ارندروب لهذه الحملة بأنه «لم يسمع طوال حياته طلقات مدافع جيش معاد ولم يسبق له ارتياد مثل تلك المناطق أو التعامل مع أناس بدائيين[2]». فاختياره اذن لقيادة الحملة لم يكن اختيارا موفقا.

(١) المصدر السابق.

(2) Loring; A Confederate Soldier in Egypt P. 188

وزاد فى توتر العلاقات بين مصر والحبشة فى ذلك الوقت ضم ميناء زيلع الى الممتلكات المصرية فى عام ١٨٧٥ ، ذلك الميناء الذى اتخذه العرب والاتراك من قبل قاعدة للهجوم على الحبشة قرونا طويلة دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها[١] .

وازاء احتلال مصر لاقليم بوغوص ، قام يوحنا بتعيين الضابط الانجليزى كركان حاكما مستقلا استقلالا ذاتيا فى حكم اقليم جندا Ginda المتاخم لاقليم بوغوص بعد رفع العلم الانجليزى عليه[٢] . وربما قصد يوحنا من وراء ذلك أن يستميل الحكومة الانجليزية للوقوف الى جانبه وحماية كركان والدفاع عنه اذا ماحاولت القوات المصرية الهجوم عليه أو التعرض له .

تكوين الحملة

أبحرت الحملة من ميناء السويس ونزلت فى مصوع فى نهاية أغسطس سنة ١٨٧٥ وكانت تتكون من ١٦ بلوكا تحت قيادة ارندروب بك ، وصحب الحملة اراكيل بك محافظ مصوع وكانت تربطه صلة قوية بارندروب . والكونت زيشى Zichy شقيق وزير النمسا المفوض بالآستانه ، وقد صحب الحملة كمتطوع . والبكباشى دورهلز Durholz وهو سويسرى الجنسية وخدم فى الجيش البابوى ، ثم عمل سكرتيرا عاما للجنرال استون رئيس هيئة أركان حرب الجيش

(1) Crabitès, Americans in the Egyptian Army P.188

(٢) المصدر السابق .

المصرى عدة سنوات ، والبكباشى ديفسون Dennison وهو من الضباط الأمريكيين الذين التحقوا بخدمة الحكومة المصرية ، والبكباشى عمر رشدى وهو تركى الأصل وشغل وظيفة أركان حرب أندروب ، والقائمقام رستم ناجى بك فى وظيفة قائمقام القوات المصرية . كما صدرت الأوامر إلى علاء الدين (وكان يرأس بعض القوات الغير نظامية بمنطقة سنهيت وأميديب) بتقـــديم المعونة اللازمة للحملة[١] .

كذلك أرسلت الحكومة المصرية أورطة عسكرية بصحبة ماكيلوب باشا رئيس عموم اللبانات والفنارات المصرية للاقامة بسواكن لحماية السواحل المصرية ولتقديم المعونة اللازمة للحملة[٢] . وقد نصت التعليمات الصادرة اليه بالبقـــاء فى سواكن وعدم مغادرتها إلا فى حالة اعتداء القوات الحبشية على الحدود المصرية فيجب عليه فى هذه الحالة التوجه مباشرة الى سنهيت .

وكانت القوات الموجودة بمصوع واميديب تكون الجناحين لقوة سنهيت التى تشتمل على ١١ بلوكا وأربعة مدافع جبلية ومترليوزين ، أى أن قوتها تقترب من ١٢٠٠ مقاتل أما أميديب فيقيم بها علاء الدين بك وقواته البالغـة سبعـة بلوكات مزودين

---

(1) Douin ; Hist. du Règne du Khedive Ismail. T. III 3e partie Fasc. P. 725.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢ « أوامر عربية » أمر كريم إلى منسنجر باشا . وثيقة رقـــم ١٠ ص ٢٧ فى ١٠ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس سنة ١٨٧٥ » .

ببنادق رمنتون ومدفع جبلى ومترليوزين ، وما يقرب من ٢٠٠ من الخيالة الباشبوزق والعربان ، أى أن قواته جميعها تتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مقاتل . وفى مصوع تعسكر خمسة بلوكات طوبجية وباشبوزق و ٢٠٠ من خيالة رجب أغا وخير الدين أغا[١] .

وبوصول منسنجر لسنهيت علم أن يوحنا يقوم بعمل التحصينات اللازمة بعدوة استعدادا لملاقاة القوات المصرية . كما علم أيضا أن فى منتصف الطريق بين عدوة والحماسين قد تجمع ثلاثة من رؤوس المقاطعات الحبشية بقواتهم للتشاور فى الحرب . وأن (دجاج قبر) حاكم الحماسين قد ركز قواته بمكان يطلق عليه اسم (سعد زقا) وهو على مسيرة ١٥ ساعة من سنهيت[٢] . وكانت الاوامر التى تلقاها منسنجر من الخديو تقضى بعدم الذهاب الى اقليم تجره وأن يظل فى مكانه لمباشرة شئون الحملة . وقد عززت الحملة بقوات جديدة ، فبعث الخديو بأورطة جديدة تحت إشراف جمالى باشا لوضعها فى الأماكن المناسبة لحماية الحدود المصرية . وفى نفس الوقت أرسل الخديو إلى ملك الحبشة كتاباً يحذره فيه من اعتداءاته المتكررة على الحدود .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٢ عابدين (واردتلغرافات) من منسنجر باشا بسنهيت إلى خيرى باشا تلغراف عربى الشفرة رقم ٢٥١ فى ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس سنة ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٢ (واردتلغرافات » من مدير عموم شرقى السودان بسنهيت إلى خيرى باشا . تلغراف عربى الشفرة رقم ٢٠٤ ص ٣٦ فى ١٢ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس ١٨٧٥ » .

وقد أوضح الخديو اسماعيل لمنسنجر أنه إذا لزم الأمر القيام بعمليات حربية ، عليه أن يتشاور فى هذا الشأن مع ماكيلوب . ويجب ألا يغرب عن ذهنه أن مصر لاتهدف من وراء دخول الحبشة إلا إقرار الأوضاع على الحدود المصرية ولا يقصد به احتلال الأراضى الحبشية بأى حال من الأحوال[١] .

وفى أواخر اغسطس سنة ١٨٧٥ أصدر الخديو أمرا لمنسنجر بتوزيع أورطتى ماكيلوب وجمالى باشا على الحدود للمحافظة عليها ، ثم القيام بمأموريته التى كلف بها فى منطقة تجره (تاجورة) بعد التأكد قبل قيامه من أن الاحباش لاينوون مهاجمة الحدود المصرية فى فترة غيابه [٢] .

ولكن منسنجر أبقى الأورطتين السابقتين فى مصوع كاحتياطى للحملة ولم يقم بتوزيعها على سنهيت وأميديب لعدة أسباب . أولا ـ صعوبة ترحيل هذه القوات إلى مراكزها الجديدة مع عدم وضوح الفائدة من هذا التوزيع .

ثانيا ـ أن مناخ مصوع أكثر ملاءمة لصحة الجنود من أميديب التى تتفشى فيها الحمى .

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٣ عابدين (صادر تلغرافات) من خيرى باشا إلى منسنجر باشا . صورة التلغراف العربى بالشفرة رقم ٥٢٧ فى ١٨ رجب ١٢٩٢ « أغسطس ١٧٨٥ ».

(٢) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى . دفتر ٢ (أوامر عربيه) أمر كريم إلى مدير شرق السودان . وثيقه رقم ١١ ص ١٠٠ فى ٢٥ رجب سنه ١٢٩٢ « أواخر أغسطس سنه ١٨٧٥ » .

ثالثا ـ شده البرودة فى سنهيت فوق مايحتمله الجنود .

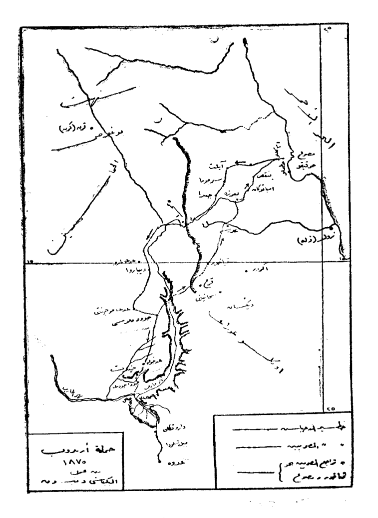
رابعا ـ أنه فى حالة مهاجمة العدو للحدود المصرية فستكون المسافة من مصوع إلى عـــدوة أقرب وأيسر من المسافه بين سنهيت وعدوة .

وقد تركز الدفاع عن الحدود المصرية فى خطين اساسيين : أحدهما يمتد من سنهيت إلى القلابات ويضم نقط سنهيت وأميديب والقلابات . والخط الثانى يمتد من سنهيت إلى الحماسين ، وليس به سوى نقطة مصوع القريبة من الحماسين .[1]

وقد حرص الخديو اسماعيل فى ذلك الوقت وقد شعر بضعف مركزه السياسى أن يوضح لمنسنجر مرة أخرى فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٧٥ بمـــا لايدع مجالا للشك أنه لايهدف من وراء تلك الحملة الدخول فى حرب مع الحبشة «لأن الوقت غير مناسب وذلك للظروف السياسية » [2] . وانما قصد من وضعها فى منطقة الحماسين أرغام الملك يوحنا على تقديم الضمانات الكافية لعدم تكرار الأعتداء على الحدود المصرية مرة أخرى وإذا مارفض يوحنا التسليم بذلك فعليه مواصلة احتلاله لهذا الأقليم .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٣ عابدين (وارد تلغراف) من منسنجر الى خيرى باشا . صورة التلغراف العربى لشفرة رقم ٣١ ص ٦ فى ١٠ شعبان سنه ١٢٠٢ « سبتمبر سنه ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر رقم ٢٤ عابدين (صادر تلغرافات) اراذة سنيه الى منسنجر ، صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٧٠ فى ٥ شعبان سنه ١٢٩٢ « سبتمبر سنه ١٨٧٥ » .



شكل (١)

ونظراً لقيام منسنجر بمهمة أخرى فى منطقة تجره (تاجورة) أسندت قيادة الجنود المصرية المقيمة بسنهيت، وكذلك الجنود المرابطة بمصوع إلى الأميرالاى أرندروب بك[1] .

خط سير الحملة (أنظر خريطة رقم ١)

تقدمت القوات المصرية من مصوع تحت قيادة أرندروب فى اتجاه عدوة، فوصلت جنـــدا فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٥. وكانت مقدمة الحملة المصرية تتكون من ستة بلوكات وثلاثة مدافع وصاروخين تحت قيادة الكونت زيشى (وهو ضابط قديم فى سلاح الفرسان بالجيش النمساوى، وحضر حربى سنة ١٨٥٩، وسنة ١٨٦٦، واشترك فى هذه الحملة كهاوٍ للوقوف على أحوال الحبشة)، قد واصلت زحفها داخل الأراضى الحبشية وعسكرت بالقرب من بلدة جوندت (جندت) فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وهى على مسيرة ساعة من قرية مارب .

وأقام الحكمدار العام أرندروب والمحافظ أراكيل بك ببلدة عدخوله وبرفقتهم ١١ بلوكا و ٦ مدافع وصاروخين تحت رئاسة الحكمدار والقائمقام من ٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ . وتقع عدخوله على

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى، دفتر ١٠ معيه عربى، أمر كريم الى علاء الدين بك وكيل محافظ سواحل البحر الأحمر وشرق السودان، صورة الأمر الكريم رقم ٤٢ ص ٤ فى ١٧ شعبان سنة ١٢٩٢ .

على بعـــد ساعتين ونصف من معسكر جوندت[1] . وعسكر البكباشى على رائف ومعه خمسة بلوكات ومدفعين بموقع قياخور وهو يبعد نحو ثمانية كيلومترات تقريباً من عدخوله Addi Huala.

ومن جندا أمر أرندروب الضابط دوره لز بالذهاب إلى أسمره على رأس قوة من أربعة بلوكات . ثم تبعه أرندروب بأربعة أخر وبطارية مدفعية وأربعة صواريخ . وكان الطريق شاقاً بين جندا وأسمره فقطعه الجنود فيما يزيد عن ١٤ ساعة . وبذلك وصلوا إلى أسمره فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥[2] .

ثم واصل سيره ثلاثة أيام متوالية حتى حفيت أقدام الجنود من جراء ارتقاء المرتفعات الوعرة . كما كانت البرودة شديدة وقاسية فوق تلك المرتفعات ، فى نفس الوقت الذى لم يكن لدى الجنود مايستطيعون به مقاومة هذا البرد القارص[3] . وانضم إلى أرندروب حاكم الحماسين ـ وكان قد سبق أن طلب حماية مصر له

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تلغرافات) تقرير مقدم من عمر رشدى بكباشى أركان حرب بخصوص الواقعة التى حصلت للعساكر المصرية بجهة جوندت التى كان فيها مقدمة الجيش وعلى بعد ساعة ونصف ساعة من المحارب . تلغراف عربى رقم ٢٢٥ فى ٢٧ شوال سنه ١٢٩٢ « نوفمبر سنه ١٨٧٥ » .

(2) Douin ; Hist. du Règne T. III 3e partie Fasc. B, P. 758

(٣) المصدر السابق .

من اعتداء جيرانه عليه (٥) ـ وكذلك ستة بلوكات سودانيـة تحت قيادة البكباشى فرح أفندى .

بقى دورهلز فى اسمرة ومعه بطاريتين وصاروخ حربى وأخـــذ يعمل فى تحصين الموقع لتغطية الثغرة المؤدية الى مادت وجندا حيث يقيم كومندان الأورطة الاولى على أفندى رفعت مع بلوكين ومدفعين لمراقبة الطرق التى تسلكها الامدادات الآتيـة من مصوع .

لم تلق القوات المصرية أية مقاومة أثنـاء توغلها فى الأراضى الحبشية ، وذلك طبقا لخطة الأحباش فى استدراج عدوهم داخل البلاد كى تطول طرق مواصلاته وتبعد مراكز تموينه . وفى نفس الوقت الذى ينال منه التعب والاضطراب الشىء الكثير ، نتيجة السير فى مناطق جبليـة وعرة تكتنفها الهضاب والوهاد ، يطبقون عليـــه بكل ماأوتوا من قوة ، ويجهزون عليه فى معركة خاطفة لاتستغرق أكثر من ساعات .

والى جانب هذه الخطة التقليدية التى سار عليها الاحباش فى حروبهم ، فهناك سبب آخر أدى الى تأخر الملك يوحنا فى مهاجمة المصريين ، وهو المنافسة الشديدة وعدم الثقة المتبادلة بين يوحنا وحكام الاقاليم الحبشية فى ذلك الوقت .

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ؛ محفظة ٤٢ « معيه تركى » من رجزامات حيلو حاكم الحماسين الى الجناب العالى . وثيقة عربية رقم ٢٦٧ بتاريخ ١٧ رجب سنه ١٢٨٤ « نوفبر سنه ١٨٦٧ » .

وقد وقفت الحكومة الفرنسية من مصر موقفاً غير ودى فى تلك الفترة، فقامت بإمداد الملك يوحنا بكمية من الاسلحة الفرنسية على سبيل الهدية. والأدهى من هذا أن هذه الأسلحة ارسلت الى الحبشة عن طريق ميناء مصوع، وعندما احتجزتها السلطات المصرية بالميناء، قامت بشأنها أزمة سياسية بين البلدين، ونجح نائب القنصل الفرنسى بمصوع المسيو سارزك Sarzac من نقلها إلى الحبشة عبر الخطوط المصرية[1]. وكان هذا الموقف من قِبل فرنسا فيه تحدٍ سافر لمصر وتحيز واضح للحبشة. وربما يرجع ذلك إلى غضب فرنسا من الخديو اسماعيل لبيعه أسهم قناة السويس لانجلترا ولميله الظاهر إلى كسب ود انجلترا وعطفها عليه، ولابتعاده عن فرنسا بعد أن خيبت آماله فى الاعتماد على معونتها فى مسألة كريت، وفى تأييدها لموقفه من الباب العالى حينما توترت العلاقات بينهما فى عامى ١٨٦٩ - ١٨٧٠.

وكلما تقدمت القوات المصرية تحت قيادة أرندروب، كلما انسحبت القوات الحبشية إلى الداخل. وفى أول نوفمبر ١٨٧٥ اتجه أرندروب نحو جودوفلاسى Goudofelassi حيث مكث بها بضعة أيام لنفاد المؤن وانتظاراً لوصول بقية القوات المصرية الزاحفة. وقد عانت الجنود مشقة كبيرة فى السير فى أراض وعرة مع تناول قليل من الطعام لا يسمن ولا يغنى من جوع.

وفى ٣ نوفمبر وصلت المؤن مع القومندان عمر رشدى، وكان

(1) Dye ; Moslem Egypt, P. 134.

يرافقه إثنان من الصحفيين الانجليز أحدهما عن جريدة استاندارد والآخر عن الديلى تلغراف . ويذكر الجنرال داى Dye (من الضباط الأمريكيين الذين يعملون فى هيئة أركان حرب الجيش المصرى) فى شىء من المرارة والشك ، أن هذين الصحفيين قد نجحا فى اختراق الصفوف المصرية والوصول فجأة إلى خطوط العدو [1].

وقد وجد أرندروب أن طريق (اسمره - مادت - جندا) وعرا بالنسبة لسير القوافل ، ولذا صدرت الأوامر إلى حاميتى مادت وجندا ، وتتكون من خمسة بلوكات ومدفعين بالاقامة فى قياخور ، بينما ألحقت حامية أسمره بالقوات الزاحفة على عدوة . واتخذت قوافل الإمدادات فى سيرها طريق مصوع لأنه سهل من الناحية العملية عن الطريق الآخر .

ونظرا لموقع قياخور المتوسط بين مصوع وقيـــادة الجيش المصرى ، وضعت فيه أربعة بلوكات ومدفعان. كما صدرت الأوامر إلى دورهلز بالدهاب إلى اكلوغزاى Akuleh Goussai ورفقته بلوكين وصاروخين.

وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أعلن يوحنا الحرب على مصر ، فأخذ يجوب طرقات عـدوة تحف به كبار الشخصيات الحبشية لحض الأهالى على حمل السلاح . وفى ٣ نوفمبر خرج الكونت زيشى على رأس سرية مكونة من بلوكين وصاروخ واحد

(1) Ibid, P. 135.

لإستطلاع منطقة عدخولهو جندت. وبعد عودته أخبر أرندروب بأن قوات يوحنا قــــد جاوزت قرية مارب ، فزوده أرندروب ببلوكين من الجنود السودانيين و ٣٠ فارسا من قبيلة بنى عامر و ٦٠ فارسا تحت قيادة حامد بك وبذلك استطاع الكونت زيشى الذى تمثل قواته مقدمة الجيش المصرى من إعداد ستة بلوكات ومدفعين وصاورخين و ٣٠ فارسا .

غادر ارندروب جودوفلاسى فى ٦ نوفمبر متجها نحو عدخوله بعد أن ترك فى الموقع الأول ثلاثة بلوكات لحمايته . وفى نفس اليوم وصل الكونت زيشى بالقرب من جندت على مسيرة ساعتين من عدخوله . وتقع جندت على حافة منطقية جبلية تتوسطها عدوة . وقد ظن أرندروب أن اندفاعه بسرعة داخل الأراضى الحبشية سيوقع يوحنا فى ارتباك شديد ، بل ربما أخذه على غرة دون إستعداد سابق .

وفى جندت تلقى ارندروب رفض يوحنــــا طلب الدخول فى مفاوضات لتسوية المسائل المعلقه بين البلدين . فعاود أرندروب الكرة وأرسل من قبله النائب محمد عبدالرحيم ليعرض على يوحنا مرة ثانية إرســـال مندوبين من لدنه للتفاوض فيما يؤدى إلى إقرار السلم .

حرج موقف القوات الزاحفة

وفى نفس الوقت رأى اراكيل بك محافظ مصوع أن يستغل الفرصة للإستفادة من التنافس بين الرؤساء والملك يوحنا ، وخصوصا التنافس بين ولد دنكل والملك .

أصبح موقف القوات المصرية الزاحفة حرجا بعـــد هذا التقدم السريع ، فقد احتلت فى مدة قصيرة ثلاث مقاطعات حبشية دون أن تلقى أية مقاومة. وقد أغرت هذه الخطة ارندروب على التقدم دون أن يكون لديه العدد الكافى لمواجهة قوات يوحنا فى عقر داره ، ومن غير أن يحسب حسابا لعاقبة هذا التهور. وكلما أوغل ارندروب فى الزحف كلما زاد موقفه حرجا ، وقلت قواته الحربية نظرا لترك بعضها على طول الطريق ، ليؤمن خطوط مواصلاته وليحول بين العدو وقطع خط الرجعة عليه .

ويبدو أن أرندروب كان يريد بهذا الزحف أن يبرر موقفه أمام الخديو إسماعيل ، فيوحنا قد رفض الدخول فى مفاوضات مع مصر ، وحل مشكلة الحدود بينهما بالطرق الودية . فلم يكن أمام ارندروب إذن إلا طريق القوة .

وكلما زاد إصرار يوحنا على الرفض زاد توغل ارندروب داخل الأراضى الحبشية بزعم أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإرغام يوحنا على التراجع عن موقفـــه . ولكن هذا التقدم يؤدى من ناحية أخرى إلى حرج موقف القوات المصرية ، فقد أصبحت فى

موقف لا يسمح لها بالانسحاب لما يترتب عليه من إنضمام رؤوس الأحباش المترددين إلى جانب يوحنا . وبذلك تتمكن القوات الحبشية من سحق القوات المصرية المتقهقرة والقضاء عليها .

وقد أحس ارندروب بغلطته بعد فوات الأوان ، فبعث برسالة مطولة إلى الخديو إسماعيل يشرح له الموقف ويستنجد به لاسعافه بمدد عسكرى . فأوضح له الخديو فى رده ، أن أمامـــه أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما دخول عدوة ، أو الاعتصام بمكان حصين مع تأمين طرق مواصلاته مع مصوع إلى أن يبعث إليه بأربع أورط مصرية وبطارية مدفعية وبلوك سوارى وبلوك لغمجيه لتعزيز قواته . ولذا كانت مهمة ارندروب بعد وصوله هذا الرد، العمل بقدر المستطاع على إطالة الوقت وتجنب الدخول فى حرب بأى حال من الأحوال ، ومعاودة الدخول فى مفاوضات من جديد ريثما يتحسن مركزه بوصول القوات المصرية الجديدة .

كما حاول الخديو إسماعيل مساعدة الحملة عن طريق إستغلال النزاع الداخلى فى الحبشة لمصلحة مصر . فبما أن القوات المصرية الزاحفة غير كافية للدخول فى حرب ناجحة مع الحبشة ولن تستطيع بأى حال من الأحوال الانتصار على قوات عن طريق الحرب ، فلابد إذن من الالتجاء إلى سلاح الفتنة وتدبير المؤامرات والدسائس للوقيعة بين الملك يوحنا ورؤوسه المنافسين له . ولهذا يأمر الخديو إسماعيل ارندروب فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥ أنه فى

حالة فشل المفـاوضات مع الملك يوحنا، عليه أن يستغل التنافس والاحقاد الكامنة بين بعض الرؤوس والملك للوصول إلى ماتصبو إليه مصر . ونصحه بتشجيع هؤلاء الرؤوس بمتخلف الطرق وأن يعدهم بمساعدة مصر وحمايتها لهم من أى إعتداء .[1]

ويرجع فشـــل المفاوضات وإصرار يوحنا على القتال إلى تحريض المسيو سارزك نائب القنصل الفرنسى بمصوع الذى اشرنا إليه من قبل ، وإلى التقليل من شأن القوات المصرية الزاحفة من حيث القوة والعدد .[2] هذا بالاضافة إلى مرافقته ليوحنا لتقديم النصح والمشورة حتى إنتهاء المعركة[3].

وفى ٢ نوفمبر أعلن بطريرك الحبشة الحرب على مصر ليصبغ الحرب بالصغبة الدينية ، فخرج على أثر ذلك الملك يوحنا تحف به قواته الحربية التى قدرت بما يقرب من سبعين ألف مقاتل لملاقاة جيش مصر[4] . وفى ١٤ نوفمبر عبرت قواته الأماميه نهر مارب وأشرفت على حافة الأخدود الذى تعسكر على مقربة منه مقدمة القوات المصرية المحاربة تحت قيادة زيشى .

وحدث فى ذلك الوقت أن ذهب أحد عشر رجلا من

(1) Douin ; Histoire du règne T 3 — 3er partie Fasc. B. P. 772.

(2) Ibid P. 769.

(3) Dye ; Moslem Egypt. - P. 134.

(4) Douin ; Histoire du règne T. 3 P. 772.

الأحباش للسقاية من ماء الأخدود فمنعتهم القوات المصرية وأطلقت عليهم النيران ، فقتل عشر رجال وفر واحـــد إلى معسكره [1] . وفى ١٥ نوفمبر بعث الكونت زيشى إلى ارندروب بنبأ اعتزام يوحنا مهاجمة جندت وعدخوله فى وقت واحد .

قسم يوحنا قواته إلى ثلاثة أقسام : الأول لمهاجمة جندت من الأمام ، والثانى لمهاجمة عدخوله من الشرق متخذا طريق عدى جورى ، بينما يرتقى القسم الثالث الهضبة عن طريق بلدة سعد بيلادى ويعسكر على مسيرة ساعة ونصف ساعة إلى الجنوب الغربى لعدخوله [2] .

وبوصول نبأ زحف يوحنـا إلى القيادة المصرية ، فضل أرندروب التقدم نحو جندت لملاقاة العدو هناك وعدم انتظاره فى عدخوله ، رغم معارضة البكباشى دنيسون وهو من الضباط الأكفاء لهذه الفكرة ، بعد أن بين لأرندروب خطورة الدخول فى قتال مع العدو فى منطقة محاطة بالمرتفعات من كل جانب ، وتمكنه من السيطرة سيطرة تامة على ميدان المعركة . هذا من جهة ومن جهة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة ٥/١ « أوراق تتعلــق بلاد الحبشة » تقرير من المدعو حسن تابع أراكيـل بك . وثيقة رقم ٥/١/١ (ى) فى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تلغرافات) تقرير مقدم من عمر رشدى بكباشى أركان حرب — بخصوص الواقعة التى حصلت للعساكر المصرية بجهة جندت . صورة التلغراف العربى رقم ٢٢٥ فى ٢٧ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

أخرى لخروج القوات المصرية من استحكاماتها لملاقاة العدو فى العراء سيضعها وجها لوجه أمام قوات تفوقها عدداوقوة، ويعرضها لأخطار الضربات . ومع هذا كله أصر أرندروب على رأيه ورفض انتظار الأحباش فى موقع عدخوله الحصين [1] .

وبناء على تلك الخطة أمر ارندروب البكباشى دنيسون بالتوجه إلى قرية سعد بيلادى فى نصف أورطة لحراسة الممر المؤدى إليها. كما كلف البكباشى عمر رشدى بمرافقة النصف الآخر من الاورطة والذهاب إلى قرية عدى جورى لحراسة الممر الآخر المؤدى إلى مدخل الهضبة شرقى عدخوله [2]. ثم ترك أرندروب عدخوله فى حراسة القائمقام رستم ناجى بك ورحل فى ١٥ نوفمبر وبرفقته أربعة بلوكات ومدفعين جبليين للحاق بالكونت زيشى فى وادى مارب. وفى نفس الوقت بعث برقية إلى القاهرة يتعجل فيها إرسال الجنود اللازمين وذلك لخطورة الموقف .

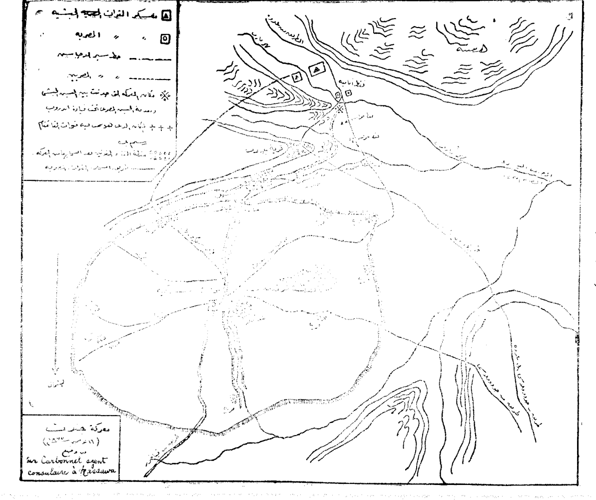
(1) Loring; A confederate Soldier in Egypt P. 302-303
(٢) المصدر السابق .

الفصل الخامس

معركه جندت

أمدَّ أرندروب الكونت زيشى قائد القوات الأمامية بأربعة بلوكات وقطعتين من المدفعية علاوةعلى الأربعة بلوكات التىلديه. وفى مساء ١٦/١٥ نوفمبر عبر الأحباش بقواتهم نهر مارب وهاجموا نقط الحراسة المصرية الأمامية واشتبكوا معها فى قتال. وفى نفس الوقت أرسل أرندروب الى رستم ناجى بك بموقع عـدخوله يستحثه على الإسراع بالحضور الى جندت ومعه خمسة بلوكات ومدفعين جبليين وصاروخيين. ثم تقدم هو (أرندروب) للحاق بقوات الكونت زيشى الأمامية على أمل أن يباغت قوات العدو (أنظر خريطة رقم ٢).

وفى تقدمه الىالأمام وقع فى خطأ آخر، إذ اتخذ طريقه وسط الأدغال التى حجبتعن ناظريه رؤية العدو، بحيث وجد نفسه فى نهايتها وجها لوجه أمام القوات الحبشية الرئيسية. لم يكن لديه وقت للتفكير أو الإعداد فالموقف جد خطير، ويتطلب العمل السريع الحازم، ولكن حرج الموقف دفعه الى تقسيم قواتهالقليلة العدد الى قسمين؛ الأول ويتكون من أربعة بلوكات وينتشر فى أرجاء المكان. والثانى يتكون من أربعة أخر وتقوم بحركةالتفاف



شكل (٢)

حوله للدفاع عنه . وقد عاقت طبيعة أرض المعركة القوات المصرية من أن تقاتل على هيئة مربع للدفاع عن نفسها ، أو أن تستخدم أسلحتها الحديثة المتفوقة فى القوة استخداما صحيحا . وبينما كانت مواقع المصريين مكشوفة كان العدو يتخذ من جزوع الاشجار [١] وفروعها ستارا يختبىء خلفه ويصلى قواتنا نارا حامية . وماهى إلا لحظات حتى أحاطت القوات الحبشية المقاتلة بالقوات المصرية كالسيل الجارف وسحقتها فى فترة قصيرة .

ويذكر الجنرال فون تورنيزن Von Thurnyssen أن القتال لم يدم فترة طويلة . وقد تمكنت القوات المصرية بفضل بنادق رمنتون السريعة الطلقات أن تضغط على قوات العدو وأن تصد هجومهم فى أول الأمر . ولكن إزدياد قوة الأحباش زيادة مطردة مكنتها من الإحاطة بالقوة المصرية . وعندما بدأت هذه القوة فى التقهقر بدون نظام ، هاجمها الأحباش بالأسلحة البيضاء فحدثت مذبحة رهيبة . [٢]

حارب أرندروب بكل شجاعة حتى آخر طلقة فى مسدسه ، ثم إستل بعدها سيفه وظل يحارب حتى خر صريعا . وبهذه النتيجة السيئة تنتهى المعركة ويسقط فى ميدان القتال من المصريين مايقرب

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٥/١ أوراق تتعلق بحوادث بلاد الحبشة (تقرير من المدعو حسن تابع أرا كيل بك عما شاهده فى واقعة الحماسين) وثيقة ٥/١/١ (ى) فى ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفبر ١٨٧٥ » .

(2) Bulletin d'Institut Egyptien ''l'Expedition de l'Egypte contre l'Abyssinie'' par Thurneyssen.

من ثمانمائه قتيل [١] بينما لم تخسر القوات الحبشية سوى واحد وثلاثين قتيلا وخمسة وخمسين جريحا [٢]. وهذا مادعا سارزاك نائب القنصل الفرنسى بمصوع الى التعجب والى التساؤل عن كيفية اندحار قوة تتكون من ألف رجل مسلحين ببنادق رمنتون (وهى من أحدث البنادق التى عرفت فى ذلك الوقت) وتحت قيادة أوربية ومزودين بأربعة مدافع ، بعد عشرين دقيقة من بدء القتال ، بينما لم تتجاوز خسائر العدو التسعين نفرا بين قتيل وجريح . [٣]

أما القائمقام رستم ناجى بك الذى كان يقيم بعدخوله والذى طلب أرندروب معاونته قبل بدء المعركة ، فقد خرج للحاق به ، وانضم اليه محافظ مصوع أراكيل بك والبكباشى أحمد فوزى أفندى قومندان الاورطة الثانية للمامورية ، والبكباشى طوبجى اسماعيل راجى أفندى. وفى الطريق بين عدخوله وجندت ، وفى سهل يسمى جوداجورى شنت قوات العدو هجمات شديدة على القوات المصرية ، ولكنها جاءت فى ظروف مواتية بالنسبة لها ، فتمكنت من تركيز قوتها والسيطرة عـــلى ساحة القتال بفضل استخدامها للمدفعية بحرية تامة . [٤]

ولكن سرعان ماتسلق الأحباش المرتفعات المحيطة بالقوات

---

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 141.

(٢) المصدر السابق ص ١٤١ .

(3) Douin ; l'Histoire du Règne. T. 3 P. 782.

(4) Dye ; Moslem Egypt. P. 140.

المصرية من كل جانب ، وأطبقوا على جنود رستم ناجى كالجراد المنتشر بحيث لم يمض اكثر من ساعة إلا وقد أجهزوا على القوات المصرية .

ويذكر الجنرال لوريج (من ضباط أركان حرب الجيش المصرى) فى وصفه لتلك المعركة : « لقد حارب رستم بك بشجاعة، فعندما شجت رأسه ، ربطها بمنديل واستمر فى إصدار أوامره وتشجيع جنوده على القتال إلى أن خر صريعا برصاصة ثانية . وحينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ظل يصدر أوامره بقتال العدو حتى قضى نحبه . كذلك سقط ارا كيل بك المحافظ الجرىء. فبالرغم من إصابته برصاصة قاتلة اخترقت جسده ظل يحث الضباط والجنود على القتال ، ويشعرهم بوجوده بينهم ضاربا بذلك مثلا عاليا فى البسالة الى أن ضاع كل أمل فى النصر[1] » . وهذا الوصف ينطبق على ماجاء فى تقرير أحد الجنود الذين حضروا المعركة[2] .

أسفرت هذه الموقعة عن موت حوالى ألف جندى من المصريين بينما لم تتجاوز خسارة الأحباش ٥٢١ جندى بين قتيل وجريح . أى أنه لم ينج من الخمسة عشر بلوكا التى اشتركت فى القتال سوى بلوك واحد تمكن بصعوبة من التقهقر إلى عدخوله . أما باقى الجنود فقد قتل

---

(1) Ibid. P. 140.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩٠٦ (صادر تلغرافات) بمحافظة مصوع «تقرير عن المعركة إلى سعادة خيرى باشا » وثيقة رقم ٤ ص ١ فى ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

بعضهم وأسر البعض الآخر . وكذلك سقطت جميع أسلحتها بما فى ذلك المدافع والصواريخ فى يد العدو .

حدث هذا فى نفس الوقت الذى كانت فيه القوات المصرية تحت قيادة البكباشيين دنسون وعمر رشدى بعدخوله بمعزل عن ميدان المعركة لاتدرى شيئا عما يدور على مقربة منها . وظلت على هذا الوضع إلى أن أنبأها بهذا الخبر المحزن شيخ البلدة . وسرعان ماأحاطت بهم القوات الحبشية حتى صارت على بعد ١٠٠٠ متر منهم .

وفى المساء بدأت جموع الأحباش تختفى عن أنظار المصريين ، الذين أخذوا يعملون بكل همة فى زيادة تحصينات الموقع الذى يعتصمون فيه . ويصور لنا البكباشى عمر رشدى موقف قواته القليلة العدد وماكان يساورها من خوف بعد فشل القوات الرئيسية أصدق تصوير، فيقول : « ولكن من بعد غروب الشمس إلى الصباح تواردت علينا بعض عساكر مجروحة وبعضها مطوشة . وهنا كسر قلوب عسكرنا وصاروا خائفين من الهجوم عليهم [1] » .

وبعد فترة من الزمن حضر إلى الموقع رسول من قبل يوحنا يحمل رسالة إلى أرا كيل بك قائد الحامية يخيِّره فيها بين أمرين إما تسليم أسلحته والخروج بقواته من الأراضى الحبشية أو البقاء فى

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تلغرافات) تقرير البكباشى عمر رشدى عن موقعة جندت . صورة التلغراف العربى رقم ٢٥ فى ٢٧ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

خدمته هو وجنوده لو رغبوا فى ذلك . أصبح الموقف بالنسبة لحامية عدخوله شديد الخطورة ، فهى لن تستطيع البقاء طويلا فى عزلتها هذه . وفى نفس الوقت ليس فى مقدورها مقاومة الأحباش بعد أن فقدت كل اتصال بينها وبين مركز القوات المصرية بمصوع . ولهذا اجتمع كل من دنسون وعمر رشدى والنائب محمد عبدالرحيم للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة هذا الموقف الخطير ، ويصور لنا البكباشى عمر رشدى هذا الموقف بقوله : « ولكن نحن نعلم ومحقق لدينا عدم وجود الجيش الأمامى بأسلحته ومهماته ، وعلمنا عدم إمكاننا المقاومة ، فقياخور بعيدة ومصوع وسنهيت أبعد والعساكر قليلة (٣٦٠ جندى فقط) ولعلمنا أن ملك الحبشة أخذ مدافع وأسلحة وجبه خانة من قتلوا ، وعلمنا عدم إمكاننا مقاومته فلذلك عملنا هذه الحيلة . » [١]

وتلك الحيلة التى أشار اليها عمر رشدى تتخلص فى أنه قد اتفق مع زميله دنسون على أن يبعثا برد على رسالة الملك يوحنا يذكران فيه بأنهما لن يقوما بتسليم مالديهم من أسلحة وعتاد ماداموا على قيد الحياة ، وأنهما أرسلا بخطابه إلى الحكمدار بجهة (سعد فلاسى) وسوف يتصرفان بمقتضى مايصلهما من تعليمات ، مع تأكدهم من موت الحكمدار أراكيل بك[٢] .

ولم يكن ماذكره الضابطان بطبيعة الحال ، إلا خدعة قصد

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

بها التموية على الأحباش إلى أن تتاح لهم الفرصة للهرب . وهذا ماحدث بالفعل ، فقد خرجت القوات المصرية من تحصيناتها بعدخوله بعد إرسال هذا الرد مباشرة، متجهة نحو قياخور . ويقول عمر رشدى ، « تركنا كل ما نمتلكه وصرنا بالهدوم التى علينا ، ومع كل عسكرى بندقيته وست دست رصاص و تركنا جميع الباقى وكذلك الأربعة مدافع[1] » .

وعند الغروب أشرفوا على بلدة (عدى أجاوجه) بالقرب من (جوده فلاسى) وكان الإعياء قد بلغ بهم مبلغا كبيرا ، فلم يتذوقوا طعم النوم أو الراحة ثلاث ليال سويا . فلما أرادو أن يأخذوا قسطهم منهـــا بعد هذه المرحلة الشاقة أخبرهم أحـد مسلمى (جوده فلاس) أن الملك يوحنا قد استشاط غضبا لهروبهم دون أن يسلموا ماباًيديهم من أسلحة ،وصمم على تعقبهم مهما كلفه الأمر. فهبوا مسرعين خشية أن يدركهم يوحنا وجنوده . إلى أن وصلوا موقع قياخور فالتحقو امحاميته تحت قيادة البكباشى على رأفت. ولم يلبث أن غادر الجميع الموقع الأخير بعد مبيت ليلة واحدة ، وبعدأن أخطروا دورهلز الذى كان يعتصم بموقع حصين على مسيرة يوم واحد من قياخور للحاق بهم فى مصوع .

وقد لاقى المصريونـــ الأهوال اثناء انسحابهم إلى مصوع فيقول البكباشى عمر رشدى « سمعنا الأصوات المزعجة فوق الجبل

---

(١) المصدر السابق .

وكانت ليلة مظلمة من الغيام وكثرة الأشجار ، وعندها وقفنا فلم نشعر إلا والعساكر فرت هاربة جهة مصوع وتاهت فى الأشجار واتحدنا جميعا فى توقيفهم فلم أمكن لأحد ذلك وهكذا فى تشتت إلى مصوع وتاهت كافة الناس عن بعضها ولكن الحمد لله لم يجرى ضرر لأحد [١] » . وبوصول هذه القوة الى مصوع أبرقت الى القاهرة بنبأ الهزيمة [٢] . كما تمكنت قوة دورهلز من الوصول إلى مصوع عن طريق حرقيقو [٣] .

نتائج الحملة :

يرجع أهم أسباب فشل تلك الحملة إلى الخطأ فى تقدير قوة الأحباش والإستهانة بأمرهم ، وكذلك لعدم تقدير العقبات التى تعترض طريق الحملة من وعورة المنطقة وتعذر الحصول على المؤن اللازمة من الأهالى .

هذا بالإضافة إلى قلة عدد جنود الحملة المصرية وتوغلها داخل الأراضى الحبشية دون أن تعتمد على احتياطى كبير العدد فى

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تلغرافات) من وكيل عموم شرق السودان بسنهيت الى خيرى باشا . صورة التلغراف العربى رقم ١٥٠ ص ٢٦ فى ٢٢ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفبر سنة ١٨٧٥ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩٠٦ « صادر تلغرافات » بمحافظة مصوع الى خيرى باشا . وثيقة رقم ٦ ص ٨ فى ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفبر ١٨٧٥ » .

خطوطها الخلفية . وقد وجدنا أنه كلما توغل أرندروب داخل الأراضى الحبشية ، قلت القوة الحربية التى تحت يديه نتيجة توزيعها على النقط الحربية على طول الطريق حتى يحتفظ باتصاله مع مصوع نقطة الإرتكاز ومركز العمليات الحربية ، إلى أن تقابل فى النهاية بالقوة الضئيلة التى بقيت لديه مع عـــدو يفوقه فى العدد أضعافا مضاعفة . ويقول الجنرال لورنج « إن من المحزن حقا أن يرى المرء تناثر تلك القوة الصغيرة العدد فى منطقة جبلية وعرة وأمام عدو قوى كبير العدد[1] » .

علاوة على ذلك فإن استخدام ضابط مغامر كالكونت زيشى - لابصفة رسمية - بل كهاو يبحث عن المغامرات لخطأ جسيم . فهذا الرجل الباحث عن المتاعب قد تقدم بسرعة كبيرة بمن معه من جنود المقدمة دون تروٍ أو تقدير للعواقب . واندفع وراءه أرندروب وبقية جنود الحملة من غير اكتراث، على أمل مباغتة العدو دون أن يضع فى حسابه الإعتبارات الحربية المختلفة كقلة مالديه من جنود ، وعدم درايته التامة بطبيعة الأرض التى يتقدم فيها ، أو إمكانيات العدو الحربية من ناحية الكفاية الحربيـة أو العـددية . حتى إذا ماطالت مواصلاته وبعدت مراكز تموينه، أرسل يستنجد بالخديو لاسعافه بقوات اضـافية من مصر ، مع العلم بأن تنفيذ ذلك غير ممكن من الناحية العملية . فمن المحال أن تدركه النجدة الحربية بهذه السرعة والعدو على بعد ساعات منه . فكان الأجدر به أن تبقى

(1) Loring; A Confederate Soldier in Egypt P.303

قواته على حدود الحبشة لتهـــديد يوحنا والدفاع عن الأراضى المصرية إذا ماسولت له نفسه الاعتداء عليها .

وهناك عوامل أخرى أسهمت فى تلك الهـزيمة إلى حد كبير ، فأرندروب لم تـكن له خبرة حربية عملية ، ولم يسبق له خوض حروب وخصوصا فى تلك المنـاطق الوعرة التى ليست له بها دراية كافية . كذلك السماح للصحفيين الانجليزيين بالتجـول بين وحدات الجيش دون أية رقابة على تحركاتهم، ثم انتقالهم إلى الجانب المعادى فى ظروف غامضة ، قد مكنت الأحباش من معرفة عدد القوات المصرية الزاحفة واتخاذ التدابير اللازمه للقضاء عليها فى الوقت المناسب .

ويلخص لنا البـكباشى عمر رشدى فى تقريره الذى وضعه عن الحملة، الخسائر التى منيت بها القوات المصرية بقوله « نتيجة ماذكر جميعه هو أن الذى فقد فى الواقعة جميعها من العساكر المصرية بجهة جندت ١٤ بلوكا من السودانيين و ٧ بلوكات من العساكر ٢ جى أورطة وواحد من ١ جى أورطة والحكمدار أرندروب والمحافظ اركيل بك والقائمقام رستم ناجى بك وبكباشية الطوبجية وبكباشى ٢ جى أورطة وضباط البلوكات جميعها التى سبق ذكرهم ، وأخذت مدافعهم ومهماتهم وأسلحتهم وخيامهم وأسر نحو ١٥ نفرا بما فيهم معاون ٢ جى أورطة وواحد ملازم طوبجيه وصاروخين من ضمن الأحد عشر بلوك الذين حضروا اثنين سودانيين، والبـكباشى

دورهلز وواحد ملازم ، وفقد من الأعداء مايفوق عن ١٥٫٠٠٠ وكثير من رؤسائهم[١] » .

ويبدو من هذا التقرير مدى الخسائر التى لحقت بمصر فى صراحة ووضوح ولكنه قد بالغ فى عدد ضحايا الأحباش كما أنه من المتعذر تحديد هذا العدد ـ لو صح التقدير ـ لسببين رئيسيين : الأول ـ أن الملك يوحنا نفسه لم يكن يعلم بالدقة مدى مالديه ولدى رؤوسه من قوات محاربة ، فقدجرت العادة أنه فى حالة قيام حرب أن يطوف الملك بأنحاء البلاد داعيا لها فيتجمع حوله وحول أتباعه أعداد غفيرة لاحصر لها فسرعان ماتجتمع للحرب وسرعان ماتنفض بعدها .

والسبب الثانى أن من عادة الأحباش ألا يتركوا موتاهم فى ميدان المعركة ، بل كانوا ينقلونهم أولا بأول إخفاءً لخسائرهم ، ولهذا فهما كانت ضحاياهم كثيرة فلا يمكن تحديدها على الإطلاق .

وبوصول فلول الجيش المصرى المنسحب إلى مصوع أصبح مابها من قوات يقدر بنحو ١٢ بلوكا من العساكر بالاضافة إلى ماهو موجود بسنهيت وبهذه القوة يصبح فى الإمكان المحافظة على مصوع من هجمات العدو ريثما تصل الامدادات الحربية من مصر[٢].

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩٠٦ « صادر تلغراف « بمحافظة مصوع إلى خيرى باشا . وثيقة رقم ٦ ص ٨ فى ٢٤ شوال عام ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين (صادر تلغرافات « من خيرى باشا إلى أحمد بك نشأت بمصوع . صورة التلغراف العربى بالشفرة رقم ٤٦٩ ص ٧٢ فى غايه شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

ونظرا لقلة عدد الجنود المصرية بمنطقة سنهيت وما جاورها ، فقد انتاب الأهالى ذعر شديد لعلمهم بعزم القوات الحبشية على مهاجمة تلك البلادوالانتقام من المصريين[1]. ولم يكونوا كبيرى الثقة فى إمكان تلك القوات القليلة العدد الوقوف أمام الأحباش وحماية البلاد .

وكان من نتيجة هذا الفشل الذى منيت به الحملة أن أصبح مركز الخديو اسماعيل حرجا . وكان عليه سواء رضى أم لم يرض أن يقوم باعداد حملة أخرى للإنتقام من يوحنا ولمحو العار الذى لحق بالقوات المصرية . فأصبحت المسألة فى نظره تتعلق بشرف الجيش المصرى أكثر مما تتعلق بالفتح والغزو .

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تلغرافات) من وكيل عموم شرق السودان بسنهيت إلى خيرى باشا . صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ١٤٧ ص ٢٥ فى ٢٢ شوال ١٢٩٢ ؛ نوفبر ١٨٧٥ » .

الفصل السادس

حملة أوسا

أو

حملة منسنجر

تعتبر حملة أوسا (حملة منسنجر) الطرف الثانى للكماشة أو الجناح الآخر لحملة أرندروب ، فقد أعدت الحملتان فى وقت واحد على أن تهاجم الحملة الأولى وهى حملة أرندروب الحبشة من الشمال متخذة مصوع نقطة ارتكاز لها ومركز عملياتها الحربية . أما الأخرى فتزحف عليها من الجنوب عن طريق ميناء تاجورة الواقع على خليج عدن . ولم يكن هدف هذه الحملة الفتح أو الغزو بقدر ما كان يهمها فتح طريق جديد يصل أوسا التى تقع على بعد ثلاثين فرسخا من تاجورة بالساحل مارا باقليم شوا والعمل على تأمينه وتنشيط التجارة المارة به ، ولتدريب سكان تاجورة على ممارسه التجارة المشروعة والإمتناع عن تجارة الرقيق [1] .

كذلك كان من أهداف الحملة عقد معاهد تجارية مع منليك ، ملك

---

(1) Dye ; Moslem Egypt P 134.

شوا استجابة للرغبة التى أبداهامن قبل[1]، والدخول فى مفاوضات معه بشأن إيجاد تحالف عسكرى ضد يوحنا تأمينا لسلامة الحدود المصرية . [2]

ونظراً لأن معظم سكان تاجورة من تجار الرقيق، فلم ينظروا الى وجود التجار المصريين بينهم نظرة ارتياح . وبوصول منسنجر إلى هذا الميناء فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بعث برسالتين إلى إثنين من زعماء تلك المنطقة ، أحدهما يدعى (حامد ولد لهيطه) ويدعى الآخر (محمد ولد هنفرى) سلطان أوسا ، يطلب فيهما التعاون مع السلطات المصرية لتنظيم تجارة تلك المنطقة وربطها بالعالم الخارجى . وكان كلا الرجلين غير مخاص للحملة ، ولكن حامد ولد لهيطة تظاهر بالإخلاص والولاء للمصريين . أمـــا الآخر فقد جاهرهم بالعداء . [3]

تكونت الحملة من ٣٦١ رجلا مزودين بمدفعين جبليين وصاروخين ، ولحق بها الضابط أركان حرب محمد عزت ومعاون شرق السودان ، ونظرا لقلة عدد دواب الحملة وتعذر الحصول عليها لرفض الأهالى التعامل مع قوات الحملة ، لم يتمكن منسنجر أن يأخذ معه قدرا كافيا من المؤن والذخائر .

---

(١) الوقائع المصريه . العدد رقم ٦٣٧ فى ١٨ ذى القعدة سنه ١٢٩٢ ٢٦ ديسمبر سنه ١٨٧٥ .

(٢) كشف الستار عن سر الاسرار (مخطوط) ج ١ ص ٣٠ .

(3) uDoin : Hist. du Règne, M. 3 P. 796.

شكل (٣)

خط سير الحملة (انظر خريطة رقم ٣)

وقد دفعت قلة جنود الحملة وافتقارها إلى المؤن والذخيرة، وعداء الأهالى لها وعدم تعاونهم معها، منسنجر الى اتخاذ منتهى الحيطة والحذر فى تقدمه نحو أوسا؛ فكلف الضابط اركان حرب محمد عزت بتقسيم قوة الحملة الى أقسام، على أن يوضع أمام كل قسم منها فريق من الكشافة يتكون من ضابط وعدد من الجنود يتراوح بين ١٥، ٢٠ جنديا ويرافقهم دليل. ثم يلى ذلك فى الترتيب ضابط أركان حرب ويوزباشى الأورطة السودانية وبصحبته دليل آخر و ٥٠ جنديا، تتبعهم الذخيرة فى حراسة المدفعية من الجانبين وخلفهم تسير الجمال تحمل المؤن والأمتعة. وعلى جانبى الحملة وضع بلوك من الجنود لتولى الحراسة عليها وفى المؤخرة يأتى بعض الجنود تحت قيادة ضابط برتبة ملازم وبرفقته بروجى ودليل.

ورغم شـــدة الحذر الذى اتخذته الحملة أثناء سيرها، فإن اعتمادها على أدلاء من الأهالى المعادين لها لخطأ كبير. فمعنى هذا أن مصير الحملة قد وضع بين يدى هؤلاء الأدلاء. وكان الأجدر أن يكون لدى الحملة خرائط مفصلة لتلك المنطقة تستطيع الاعتماد عليها، والسير على هديها.

تقدمت الحملة نحو أوسا متجنبة السير فى فترة القيظ حتى اذا ما أرخى الليل سدوله لجأت إلى مكان مرتفع خال من الأشجار لتعتصم فيه استعدادا للطوارىء. وفى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٥ وصلت الحملة

الى بحيرة عسل Assal . ثم واصلت سيرها ببطء وحذر إلى أن بلغت مرتفعات أوسا والى السهل المسمى باسمها فى ٧ نوفمبر حيث وجدت أن جميع مالديها من مؤن قد نفد . وما أن وصلت الحملة إلى هذا المكان حتى تقدم محمد ولد لهيطة بفروض الطاعة والولاء للحكومة المصرية مظهراً رغبته فى تقديم كافة التسهيلات اللازمة للحملة . ولكن محمد ولد هنفرى (وبعض الوثائق تطلق عليه اسم حنفلى)شيخ أوسا، رفض مقابلة منسنجر أو التعاون معه .

وفى أثناء ذلك حدثت موقعة جندت وانهزمت حملة أرندروب، فبعث الخديو اسماعيل ببرقية الى منسنجر فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يحذره فيها من التقدم الى أبعد من حدود أوسا،ويشير عليه بالالتجاء الى أى مكان آخر يسهل الدفاع عنه وخصوصا بعد النكبة التى حلت بالقوات المصرية بجندت . وينصح الخديو فى خطابه بعدم الدخول فى مفاوضات مع منلك لعقد الاتفاقية التجارية لأن الوقت غير مناسب وذلك لظروف الهزيمة التى لحقت بالقوات المصرية ، الا إذا طلب منلك ذلك بنفسه . ولكن هذا الخطاب الذى أشرنا اليه لم يصل الى يد منسنجر لخيانة ولد لهيطه [1] .

ولما كان ولد لهيطه يضمر الشر للحملة ويريد الوقيعة بها، فقد أشار على منسنجر باتباع طريق الجنوب المؤدى الى أوسا نظرا لسهولته وقصره عن طريق الشمال كما زعم . وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت القوة الى منبع نهر أوسا حيث اختار منسنجر مكانا

(١) المصدر السابق .

مناسبا لتأخذ القوات الزاحفة قسطها من الراحة . ولكن ولدهيطة عارض الإقامة فى هذا المكان لغرض شرير فى نفسه واختارمكانا آخر يقع فى أسفل الجبل وتكثر فيه الأشجار بحجة أنه أكثرملاءمة لراحة الجند من المكان الآخر . وكان من الخطأ وضع جنود القوة فى مكان كثيف الأشجار يحجبهم عن رؤية العدو ويكون هدفا سهلا للقوات المعادية التى تسيطر على قمة الجبل . فموافقة منسنجر على مشورة ولد هيطة - رغم تعارضها مع أبسط القواعد الإستراتيجية - يعتبر جهلا وإسرافا فى حسن النية لا مبرر له . وما أن استقرت الجنود فى هذا المكان إلا وقد اختفى ولد هيطة عن الأنظار متعللا بالعمل على توفير الدواب والماشية للحملة .

معركة أوسا :

بدأت تحدث بعض المناوشات بين الأهالى والجنـــد منذ أن استقرت الحملة فى هذا المكان ، فأدرك منسنجر على الفور بأنه يقيم وسط منطقة معادية له ، وعليه أن يتصرف بكل سرعة وحذر لمواجهة الموقف ، فقسم قوته على هيئة مربع . فوضع جزءا من البلوك الأول جهة الشرق والجزء الآخر جهة الشمال . كذلك وضع جزءا من البلوك الثالث فى الشمال والجزء الآخر فى الغرب . وفى الجنوب وقف البلوك السودانى على أهبة الإستعداد ، وفى وسط هذا المربع وقف منسنجر تحيط به حاشيته وكذلك دواب الحملة [1] .

---

(١) المصدر السابق .

كان اختفاء ولد لهيطه على النحو الذى ذكرناه بداية المعركة ، فقد أسرع إلى قومه يخبرهم بقوة الحملة وبمكانها وليقودهم إلى مواقعها بعد أن ينتصف الليل. وما هى إلا بضع ساعات وانقض العدو على القوات المصرية وهى نائمة وأشبعها طعنا وتقتيلا. ويصف لنا عمر عزمى باشا الذى أرسلته الحكومة المصرية إلى هرر للتحقيق فى أسباب الهزيمة هذا الحادث بقوله: «وبعد نصف الليل بساعتين برز رجلان فى جهة الخيمة يدعيان أنهما أتيا لبيع مواشى ، فلم ير الخفراء أهمية إيقاظ النائمين من أجلهما ، فقبضوا عليهما وربطوهما فى المدافع ، فصاحا فهجمت أقوام كثيرة من قبائل (غالاس) واقتحموا المحل فبادر ابن الشيخ محمد لبيده (لهيطه) المذكور أمير الجهة وضرب الباشا وهو نائم[١] بسكين كانت معه. فضربه جاويش تابع للباشا ضربة ألقته طريحا على الأرض ، ووقعت مقتلة قتل فيها حتى من كان معهم من النساء ، والباقون من العساكر صعدوا بمشقة على رابية وصاروا يناوشون أولئك الأقوام تحت رئاسة اليوزباشى عزت أفندى إلى الصباح. وبرجوع الأعداء نزل العساكر ثانية إلى الخيمة فوجدوا الباشا فى آخر رمق. و(هاغنجى أشر) و (رأس جورو) مجروحين جروحا خطيرة. وبعد يوم حملوهم وتلبسوا بالعودة. وفى اليوم الثانى من

(١) وفى رواية أخرى يذكر المصدر السابق ص ٨٠٧ بأن البلوك أمين خليل سنجر ذكر بأن الشيخ العربى « يقصد ولد لهيطه » الذى خان منسنجر شوهد وهو يقاتله أمام خيمته فصوب إلى منسنجر ضربة من رمحه أصابته فى حلقه ، فأطلق عليه منسنجر الرصاص فخر الاثنان صرعى.

عودتهم توفى الباشا ثم الآخران عن تلك الجراحات[1]» .

أسفرت تلك المعركة عن قتل ما يقرب من ٦٠٠ مقاتل من الأحباش عدا من وجد منهم قتيلا فى الماء وذلك بفضل قوة المدفعية المصرية . أما عن الخسائر التى منيت بهاقوات الحملة ، فقد قتل منسنجر وجميع أفراد أسرته وكذلك النساء والأطفال وكل ضباط المشاة وقومندان المدفعية وجميع جنوده فيما عدا ١٧ جندياً منهم بعض الجرحى ، وأكثر من مئة من جنود المشاة و٢٨ نفراً من البلوك السودانى[2] . كما استولى المهاجمون على جميع الهدايا الثمنية المرسلة إلى منليك ملك شوا[3] .

تولى القيادة بعد موت منسنجر على من بقى من جنود الحملة على قيد الحياة الضابطان محمد عزت ويوزباشى البلوك السودانى ، وكان عليهما أن ينسحبا فى أسرع وقت ممكن إلى تاجورة بعد أن نفد كل مالديهم من المؤن ، كما كانت الذخيرة الباقية لا تكفى إلا للدفاع عن أنفسهم أثناء الطريق . هذا بالاضافة إلى أن بعض ما بأيديهم من أسلحة قد فسد وأصبح غير صالح للاستعمال .

إتخذت الحملة فى إنسحابها طريقا آخر غير الذى سلكته لتتحاشى بذلك السير فى الأراضى المعادية التى مرت بها من قبل ، وواصلت

(١) الوقائع المصرية العدد رقم ٦٣٧ فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ « ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ » .

(2) Douin ; Hist. du Règne T. 3 P. 808.

(٣) كشف الستار » مخطوط ج ١ ص ٢١ .

سيرها مسرعة فى إتجاه تاجورة مخترقة مناطق جبلية وعرة ومن خلفها القبائل العربية المعادية تجد فى مطاردتها بلا هوادة حتى نال منها الجوع كل منال ونفدت مالديها من ذخيرة المدفعية .

وفى خلال الطريق دخلت القوات المصرية المنسحبة فى قتال مع القبائل العربية المطاردة مرات عديدة ، واستمر الحال على هذا النحو حتى وصول تلك القوات إلى تاجورة فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكانت فى ذلك الوقت تتكون من ٧٣ جندياً سودانياً و٧٣ جندياً عربياً أى من ١٤٦ جنديا وأربعـــة ضباط هم محمد عزت أفندى أركان حرب واليوزباشى دياب أغا والملازم عبد الجبار أغا وفرج أغا ، وهؤلاء هم الذين تمكنوا من النجاة من مجموع الحملة التى تتكون من ٣٦١ ضابطاً وجندياً[١] .

أسباب فشل الحملة

فشلت تلك الحملة فى تحقيق أغراضها كما أخفقت سابقتها من قبل وذلك لنفس الأسباب ؛ منها الاندفاع داخل مناطق معادية بقوات صغيرة العدد لا يمكن إمدادها بالمساعدات المطلوبة إذا لزم الأمر لبعدها عن مراكز تموينها .

كما أن تلك القبائل العربية المسلحة كانت تنظر إلى كل أوربى نظرة شك وريبة ، فاستخدام الخديو إسماعيل لهؤلاء الأجانب قد أضر بمصر إلى حد كبير . فلم يكن من السهل على منسنجر كرجل نصرانى

(٢) المصدر السابق .

أن يحصل على إخلاص وولاء تلك القبائل المسلمة . وهذا عكس ما أصابه البكباشى محمد مختار من نجاح كبير فى مهمته لكشف منقطة هرر وعمل الخرائط الجغرافية اللازمة لها ، وما لقيه فى تلك البلاد من ترحيب الأهالى ومساعدتهم.

وهناك سبب آخر أسهم فى تقرير مصير تلك الحملة ألا وهو جهل القائمين على تدبير شئونها بطبيعة تلك البلاد والإعتماد على الأدلاء بدلا من إستخدام الخرائط المفصلة التى كان يجب أن تتوافر لديهم قبل قيام الحملة . ومن المؤسف حقا أن هذا التقصير قد تداركته الحكومة المصرية بعد هذه النكبة ، فقامت برسم خريطة تفصيلية لأهم الطرق المؤدية إلى هذا الإقليم وطولها وما بها من آبار [1] .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ١١ معية صادر وثيقة رقم ٢٣ ص ٦٢ فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ « يناير سنة ١٨٧٦ » .

الفصل السابع

حملة راتب باشا

كان الإحتكام الى السلاح أمرا لامفر منه ، فقد أصيبت هيبة مصر العسكرية بضربتين متتاليتين ، لالضعف جنودها أو لعدم كفايتهم الحربية ، ولكن لسوء تقدير القائمين على إعداد الحملتين السابقتين ولتهاونهم تهاونا مشينا أدى الى هزيمة مصر هزيمة رخيصة فى مواقع كان يجب ألا تهزم فيها لو أحسن التدبير واتخذ لكل أمر عدته . فكان لابد اذن من ارسال حملة أخرى هدفها الأساسى ليس الغزو أو الفتح فى حد ذاته - وانما للانتقام أولا وقبل كل شىء لشرف مصر العسكرى وذلك لأن مصير الوحدة بين مصر والسودان كان يتوقف إلى حد كبير على مدى قوة مصر الحربية فى تلك الجهات .

لذا نجد أن الخديو اسماعيل يخفى نبأ فشل حملتى أرندروب ومنسنجر عن المصريين حتى لايحدث اضطرابا أو قلقا فى النفوس. وفى نفس الوقت أخذ يعد العدة للإنتقام من يوحنا والثأر لشرف الجيش المصرى . فعقد اجتماعا فى قصر عابدين تحت رئاسته وعضوية الأمير حسين ناظر الجهادية ونوبار باشا وشريف وراتب باشا والجنرال استون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصرى والجنرال لورنج والأمير الاى فيلد والأمير الاى داى وهم من الضباط الأمريكيين الذين استخدموا فى هيئة اركان حرب الجيش

المصرى . واستقر الرأى بعد تبادل وجهات النظر على الإسراع فى إعداد حملة جديدة بحيث تنتهى من مهمتها قبل حلول فصل الأمطار الذى يبدأ عادة فى شهر مايو . وأسند أمر تجهيز الحملة واعدادها الى الأمير حسين ناظر الجهادية والجنرال استون رئيس اركان حرب .

بدأ الخديو اسماعيل يعد الأذهان للحملة الجديدة ويمهد لها السبيل فبعث بكتاب إلى منليك ملك شوا يخبره بمقتل منسنجر وهو فى طريقه اليه لإيجاد علاقات تجارية معه . وكذلك أنبأه بمقتل مندوبه (مندوب منليك) الذى كان يرافق منسنجر فى رحلته، قبل أن يتمكن الإثنان من تنفيذ هذا المشروع . وبيّن له فى نفس الوقت مايقوم به يوحنا من أعمال عدوانية على منطقة الحماسين ، وأنه يتخذ العدة لتجهيز جيش قوامه ١٥ الف مقاتل أو يزيد للإنتقام منه وتأمين الحدود المصرية وايجاد علاقة تجارية مع مملكة شوا [1] .

وكانت الحكومة الفرنسية تنظر الى تلك الإستعدادات الحربية من جانب مصر نظرة قلق وعدم ارتياح . وكانت ترى فيما يقوم به اسماعيل من توسع فى أفريقيا تحرشا بالحبشة وتطويقا لأراضيها من جميع الجهات . وما تلك التحركات العسكرية التى يقوم بها على الحدود الحبشية سوى محاولات من جانبه للاستيلاء عليها .

أما عن موقف الحكومة الانجليزية من الحملة فيختلف عن

(1) Douin ; Histoire du règne T 3 — 3er partie Fasc. B. P. 823.

موقف فرنسا ، إذ كانت ترى وجوب سيادة السلام والاستقرار فى تلك المنطقة من العالم بطريقة تضمن المصالح الإنسانية وتحفظ على مصر أموالها، فى وقت اضطربت فيه شئونها المالية والاقتصادية . ولهذا نصحت الخديو اسماعيل بضرورة التروى والعدول عن إستخدام القوة وعن القيام بالأعمال العدوانية ضد الحبشة . كما أن الرأى العام الإنجليزى كان يعارض بشـــدة فى ضم الحبشة إلى الممتلكات المصرية ، وينظر إلى تلك المسألة من زواياها الدينية .

وقامت الحكومة الإنجليزية بابلاغ وجهـــة نظرها فى هذا الموضوع إلى سفيرها فى الآستانة ، موضحة له بأن المضى فى تنفيذ هذا المشروع إلى نهايته ســـيجر الخراب والدمار على الميزانية المصرية . كما أن نجاح الحملة سيخلق للحكومة المصرية صعوبات جمة ومشاكل سياسية خطيرة ، لأنه سيلحق بها عناصر جديدة مختلفة فى الجنس والدين . »[1]

ولكن الخديو أوضح بجلاء أن الهدف الذى يرمى اليه من وراء تلك الحملة هو الإنتقام لشرف مصر العسكرى وتأكيد هيبة الحكومة المصرية فى تلك المنطقة المجاورة لها ، وعقد صلح مشرف بينه وبين يوحنا .

---

(1) Douin ; Histoire du règne T. 3 - 3er partie Fasc. B. P. 825.

اعداد الحملة

بذلت نظارة الجهادية نشاطا كبيرا فى إعداد الحملة وتجهيزها فى وقت قصير كى تستطيع مغادرة البلاد فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ . وتم بالفعل إعداد الحملة وإبحارها من ميناء السويس فى ٦ ديسمبر ، وتمكنت من الوصول الى مصوع فى يوم ١١ من نفس الشهر . وقد تكونت الحملة من[١] .

راتب باشا   قائدا عاما للحملة

أما هيئة أركان الحرب الخاصة بالقيادة العامة أو ما يطلق عليه اسم ضباط ياوران حربيين فتتألف من :

القائمقام عبد العال حلمى (من زعماء الثورة العرابية)

البكباشى تورنيزن Thurn eyssen

البكباشى خسرو عزمى أفندى

» عبد اللطيف »

المعاون محمد فؤاد »

» محمد نسيم »

» رجب صديق »

الكتاب الملحقون بمعية راتب باشا .

القائمقام محمد رفعت بك   من كتاب المعية السنية

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة رقم ٨ سودان . دفتر شامل للحرب الحبشيه الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى المعاون « من محرم — شعبان سنة ١٢٩٢ » .

القائمقام حسن فهمى بك
« حسنين سليمان أفندى
حسن احمد أفندى

وتتكون هيئة أركان حرب الحملة من[1] :	الجنسية
الجنرال لورنج Loring رئيس هيئة أركان حرب الحملة والقائد الثانى للحملة	أمريكى
الأميرالاى داى Dye مساعد رئيس هيئة أركان حرب	»
» درك Derrik	»
» فيلد Field	»
القائمقام ڤون مكلن Von Mocklen	»
» على حلمى	مصرى
» جريفز Graves	أمريكى
» لوش Losch	»
البكباشى عمر رشدى (الذى رافق حملة أرندروب)	مصرى
» لامسون Lamson	أمريكى
» طبيب ولسون Wilson	»
الصاغ دورهلز Durholz	سويسرى
» دنيسون Dennison	أمريكى
» دوليه Dulier	بلجيكى

(1) Bulletin d'Institut Egyptien.

اليوزباشي صورماني	إيطالي
« ابراهيم افندي	مصري
« بورتر Porter	أمريكي
« ايرجنس Irgens	«
الملازم أحمد رائف افندي	مصري
« عبد الرحمن مجدي افندي	«
« أحمد عزمي افندي	«
« يوسف ضيا افندي	«
« حسين رمزي افندي	«
القائمقام لوكت Lockett (وقد انضم اخيراً للحملة)	امريكي

اما عن عدد قوات الحملة فتتكون من :

عدد

٤ آلايات من المشاة يتكون كل منها من ثلاث أورط وعدد أفراد كل أورطة ٩١٠ جندي تقريباً ، ثلاثة منها مصرية والآلاي الرابع من السودانيين .

١ أورطة مأمورية وبعض بلوكات متفرقة يبلغ مجموع أفرادها ١٢٠٠ جندي .

٥ بلوكات من المهندسين واللغمجية مجموع أفرادها ٤٨٠ مقاتلا .

٣ بطاريات جبلية وتتكون كل منها من ٦ مدافع .

٢ بطارية غارديا (حرس) ذات مدافع من طراز بلبل .

٣ أورطة فرسان في كل أورطة ١٧٦ حصانا .

وقد بلغ مجموع عدد جنود الآلايات والأورط المذكورة حوالى ١٢٠٠٠ مقاتل بالإضافة الى خمسمائة نفر جمالة من العربان والسيَّاس المصريين . وكان هـؤلاء الجنود ينقسمون الى لواءين، وكل لواء مكون من آلايين من المشاة والطوبجية والفرسان[١] .

وفيما يلى أسماء القواد والضباط العظام :

حضرة صاحب السعادة عثمان رفقى باشا قائد لواء السفرية الأول

حضرة صاحب السعادة راقب راشد باشا قائد لواء السفرية الثانى

حضرة صاحب العزة عثمان غالب بك

ميرالاى الآلاى الأول من لواء السفرية الأول

حضرة صاحب العزة خورشيد عاكف بك

ميرالاى الآلاى الثانى من لواء السفرية الأول

حضرة صاحب العزة محمد جبر بك

ميرالاى الالاى الأول من لواء السفرية الثانى

حضرة صاحب العزة عثمان نجيب بك

ميرالاى الآلاى الثانى من لواء السفرية الثانى

اسماعيل صبرى أفندى بكباشى البطارية المدفعية الأولى والثانية

---

(١) يذكر الضابط أركان حرب تورنيزن فى مجلة Bulletin d'Instttut Egyptien بأن عدد جنود الحملة ١٣٫٧٨٠ مقاتلا ، كما يذكر الجنرال داى فى كتابه Moslem Egypt ص ١٥٥ بأن عدد جنود الحملة يبلغ ١١٫١٢٠ وإذا أضفنا ماتبقى من حملة أرندروب يرتفع العدد إلى ١٢٫٠٠٠ جندى تقريباً . كذلك كان بسنهيت مايقرب من ١٢٠٠ جندى .

راشد أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الأولى
مصطفى أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الثانية
محمد شاكر أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الثالثة
حضرة صاحب العزة أحمد عرابى بك	مأمور الحملة
حضرة صاحب العزة محمد شاكر بك	مأمور النزل
حضرة صاحب العزة حسن حسنى بك	ناظر المستشفى العسكرى
حضرة صاحب العزة محمد على بك	المفتش الصحى

ويتكون سلاح المدفعية من القطع الآتية [1] :

عدد

٢ بطاريتى ميدان (طراز كروب) ١٢ قطعة .

١ بطارية ميدان (طراز قديم من الصلب) ٦ قطع .

٤ بطاريات جبلية ١٦ قطعة .

ومجموع تلك المدافع ٣٤ مدفعا و ١٢ صاروخا . (مع العلم بأن الصواريخ كانت عديمة الفائدة بالنسبة للحملة ولم تستخدم فى القتال مطلقا) . وبلغ عدد دواب الحملة من الخيل والبغال والجمال حتى ذلك الوقت ٢٨٠٠ رأس .

وفى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ نزلت الحملة بميناء مصوع ، فعسكر بعض جنودها على ساحل جيرار المقابل لجزيرة مصوع ، والبعض

---

(1) Bulletin d'Institut Egyptien.

الآخر فى موقع حطملو وهو على مسيرة ساعة تقريبا من الميناء . كما كانت المنطقة الواقعة بين مصوع وأم كللو وحطملو منبسطة وصالحة لإقامة بضع آلايات[١] .

العقبات فى طريق الحملة :

ونظرا لقرب المنطقة التى عسكر بها الجنود من البحر فإن مياه الآبار التى حفرت كانت لاتصلح للشرب إلا لمدة ثلاثة أيام فقط وبعدها يصبح الماء مالحا[٢] . ولهذا كان تزويد قوات الحملة ودواب الحمل بالمياه من أعظم المشاكل التى واجهت احمد عرابى بك (زعيم الثورة العرابية) مأمور الحملة صعوبة ، فلم يكن لديه من دواب النقل مايفى حاجته لنقل كميات كبيرة من المياه الصالحة للشرب من المناطق الداخلية البعيدة عن البحر .

ويذكر احمد عرابى فى هذا الشأن أن معظم تلك الحيوانات قد « أخذ من المصريين غصبا وبلا ثمن . وكذلك العلف من الشعير والفول والذرة والتبن الذى أخذ بلا عوض غير الوعود الكاذبة بخصم الأثمان من الضرائب المطلوبة منهم . وتلك الضرائب لانهاية لها ولا يمكن لأى حاسب أن يعرف ماله وما عليه لكثرة الضرائب الغير قانونية[٣] » .

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (دفتر شامل لحرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى المعاون) .
(٢) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار « مخطوط » ص ٢١ .
(٣) المصدر السابق .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٥ وجه كل من راتب باشا والجنرال لورنج رئيس هيئة اركان حرب الحملة « نداءً الى علماء الحبشة وأعيانها بأن الحملة المصرية لا تقصد غزوا ولا فتحا وانما جاءت لتأديب الملك يوحنا لتعديه على الحدود المصرية ونهبه الأراضى المصرية وأنهم لن يتعرضوا لمعتقدات الناس ولا لدياناتهم (١) » . وكان ذلك ردا على ادعاءات الملك يوحنا التى أذاعها على رؤوسه ورعاياه بأن جيوش مصر انما جاءت لاحتلال البلاد والقضاء على الدين (٢) .

من أعقد المشاكل التى واجهتها الحملة منذ أن وطأت أقدامها أرض مصوع حتى نهاية المعركة هى قلة دواب النقل التى جمعتها من مصر . ولما كانت الدواب بالنسبة للجيش بمثابة الشرايين التى تنقل الدم الى جسم الانسان ، أدركنا مدى الخطورة التى تتعرض لها القوات المحاربة اذا ما افتقرت الى العدد الكافى منها . وقد حاول القائمون على أمر الحملة أن يسدوا هذا النقص من مصوع والمناطق المحيطة بها ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك . ويذكر راتب باشا أنه بالرغم « مما بذل (احمد نشأت بك) من جد وأنفق من جهد لم يسعه أن يجمع من الثلاثة آلاف بعير التى خصصت لهذه الحمله سوى ثلاثمائة لمّها من هنا ومن هنا . . ولما كان مستحيلا علينا أن ننقل أثقال آلاى واحد وأحماله إلى المواقع الواجب احتلالها

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سوذان سنة ١٢٩٢ (دفتر شامل لحرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى المعاون) .

(2) Douin ; l'Histoire du Règne. T. 3 P. 842.

مادام الحيوان الكافى لذلك معدوما . . لهذا الغرض طلب من نظارة الجهادية بأن تسارع إلى إمدادنا من كل صوب وحدب بالحيوانات أياً كان المحل الوارد منها[١] » .

ولم تقف هذه المشكلة عند هذا الحد ، بل زادت تعقيداً بمرور الوقت ، فالإرهاق الشديد الذى تعرضت له تلك الدواب ، بالاضافة إلى سوء رعايتها من قبل المكلفين بالإشراف عليها ، ولهجمات ذباب القسى تسى عليها ، ولتغير المراعى واختلاف الماء[٢] ، كل هذا قد عرضها للهلاك ففقدت منها اعداد كبيرة . أى أنه كلما اشتدت الحاجة الى الدواب كلما قل عددها وكلما زادت متاعب الجيش .

وترتب على هذه المشكلة مشكلة أخرى نشأت من تأخر قوات الحملة فى الزحف على الحبشة ، مما أتاح ليوحنا فرصة كبيرة للإستعداد لملاقاة الحملة ، وذلك نتيجة لبقاء القوات المصرية فى مصوع من ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ الى ٢٤ يناير سنة ١٨٧٦ [٣] فى انتظار نقل العتاد والمهمات الى الخطوط الأمامية بهذا العدد القليل من الدواب . ولكن احمد عرابى مأمور الحملة الذى كان مكلفا بتموين

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظه ٥٢ « معيه تركى » من محمد راتب باشا سردار العساكر المصرية إلى مهردار الخديو . وثيقه تركيه رقم ٣٥٣ فى ١٤ شوال ١٢٩٢ « ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاون عن الحرب الحبشيه الثانيه) .

(3) Bulletin d'Institut Egyptien.

الجيش بما يحتاج اليه من مؤن وذخائر ووسائل النقل والذى يعتبر مسئولا أو مشتركا الى حد ما فى هذا التقصير قد عزا هذا التأخر والإنتظار الى أمراء الآلايات الجراكسة الذين كانو يحسبون للحبش ألف حساب ويتهيبون من لقائهم . ويظنون أن طــول المكث فى مصوع وحولها يحمّل الحكومة مصاريف باهظة لعجزها عن القيام بنفقات الجيش اللازمة له الى النهاية فترجعهم الى مصر بلا قتال . وهذا الفكر الضئيل سمعته من أحد الأمراء المشار اليهم وهو ناقم مشفق من النتيجة[1] » .

أما المشكلة الثانية التى واجهت الحملة فهى قلة مالديها من الذرة ، فقد كانت فى حاجة الى ٥٦٢٥ أردبا منه لتموين قواتها لمدة ثلاثه أشهر . ولم تستطع الإعتماد على أسواق مصوع لتدبير تلك الكمية ، نظرا لأن مصوع نفسها كانت تعتمد فى استهلاكها لهذا المحصول على مايستورد من اليمن والتاكا والحبشة[2] .

وهذه المشكلة بالإضافة إلى مشكلة دواب النقل قد أسهمتا فى تأخير زحف الحملة فى الوقت المناسب وما ترتب عليه من نتائج.

كان من المتعذر إذن للأسباب التى أشرنا اليها الهجوم مباشرة على الحبشة ، كما أنه ليس من الحكمة ـ نظرا لقلة دواب النقل ـ ارسال فرقة واحدة من الجنود الى الخطوط الأمامية دون أن

---

(١) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٢ .

(2) Douin ; Hist. du règne T. P. 862.

يكون لدى قيادة الحملة الاستعداد الكافى لإمدادها بالمعونة التى تحتاج اليها وبالقوات الاضافية اللازمة عند الحاجه"[1].

بعث الخديو اسماعيل فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٥ يستحث قائد الحملة راتب باشا على الزحف ويخبره بارسال ابنه الأمير حسن باشا لمرافقة الحملة برتبة أميرالاى حرب ، على أن يكون بصحبته أينما ذهب[2] .

خط سير الحملة (انظر خريطة ٤)

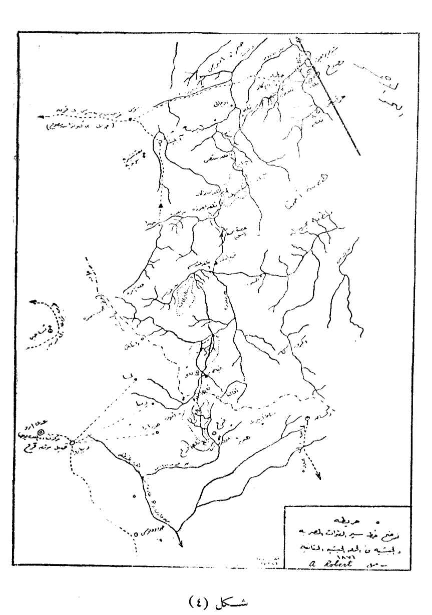
وقد اقترح فى ذلك الوقت أن يقوم الجيش المصرى بهجوم مزدوج من ناحيتين : الأول عن طريق أسمرة (وهو الطريق الذى سلكه أرندروب من قبل) وتقوم به قوة صغيرة العدد تتكون من أورطة واحدة ومدفعين وتتقدم حتى بلدة جندا .

أما الهجوم الثانى فيقوم به الجيش الرئيسى عن طريق قياخور ويتألف هذا الجيش من ٤٠٠٠ جندى ، على أن يواصل تقدمه نحو الجنوب لاحتلال موقع بعرزة لأهميته فى كل هجوم مقبل على قياخور . وكذلك العمل على تحصين موقع عدرسة (وهو على مسيرة يوم واحد جنوبى بعرزة) لحماية خطوط المواصلات[3] . (انظر خريطة ٤)

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 201.

(٢) تقويم النيل « عصر اسماعيل » المجلد ٣ ج ٣ ص ١٢٨١ « لإرادة للسردار راتب باشا » فى ٢٩ ذى القعدة ١٢٩٢ « ٢٥ ديسمبر ١٨٧٥ » .

(3) Dye ; Moslem Egypt. P. 210.


خريطة
توضح خط سير القوات المصرية
والحبشية في الحملة الحبشية الثانية
١٨٧٦
A Robert

شكل (٤)

بدأت قوات الجيش تتقدم نحو الجنوب بعد أن زود كل جندى بندقية من طراز رمنتون وشنطة بها ٢٠ خرطوشة وجعبة بها من البقسماط ما يكفيه مـدة خمسة أيام و ١٠٠ رصاصة وعبـاءة وكبود من الصوف (١)

وفى ذلك الوقت تواترت الأنباء باستعداد الملك يوحنا للحرب وبأنه قد أعد العدة لملاقاة جيش مصر بما يزيد عن مئة الف مقاتل.

تمكنت مقدمة الجيش المصرى من القيام بالأعمال التمهيدية مثل تعبيد الطرق التى سلكتها فى زحفها نحو عدوة. كذلك قامت بمد الخطوط التلغرافية من مصوع حتى موقع بعرزه فقط دون أن تستطع توصيلها الى موقع قياخور الذى يبعد عن بعرزة بنحو ٤٠ ميلا، وذلك لنفاد الأدوات والمهمات اللازمة. كما أخذ اليوزباشى ايرجنس فى الكشف عن مواقع العدو، ووصل فى تقدمه الى مكان يبعد عن عدوة بنحو ثلاثين ميلا. ورسم كذلك خريطة لتلك المنطقة تتضمن المعلومات الهامة التى يحتاج اليها الجيش فى تقدمه.

ويبدو أن الخديو اسماعيل كان يخشى انهزام تلك الحملة أمام الأحباش لأنه كان يدرك مدى الأثر الذى تحدثه تلك الهزيمة على مركزه فى مصر وفى ممتلكاتها الإفريقية، لهذا أرسل الى راتب باشا قائد الحملة يحذره من الإشتباك مع العدو إلا فى الوقت الملائم

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق افندى المعاون عن الحرب الحبشية الثانية).

والمكان المناسب ، ويبين له بأن الأحباش قد تعودوا الحرب في المضـــايق والمناطق الضيقة وفي الغابات .

صدرت التعليمات الى الفرقة الأولى التي تمثل مقدمة الجيش المصري بالتقدم نحو الجنوب تحت قيادة أمير اللواء عثمان رفقي باشا . وكانت تتكون من ثلاث أورط من المشاة وبلوك من السواري وفصيلتين من سلاح المهندسين وبطارية جبليه من أربع قطع وصاروخين [١] . وتقدمت تلك القوة الى موقع ينقص Yangous ثم غادرته في ١٢ يناير ١٨٧٦ متجهة نحو بعرزة [٢] حيث تتوافر المياه ، « الا أن الميدان الموجود فيها صغير وتحيط به هضاب عالية من كل ناحية ، ويفصلها من الوسط خور (مجرى مائي) ، وهذا الميدان متسع من ناحية منها لإقامة أربع أورط في هيئة مجتمعة ، وناحية أخرى تتسع لوضع الأرزاق والذخيرة (محطة نزل) وهذا الوضع لا يساعد على انشاء الاستحكامات فيه [٣] » .

ولكن أهميه هذا الموقع جاءت من اشرافه على ثلاثة طرق رئيسية : الأول يؤدي الى أسمره ويقع في الجهة الغربية منه

(1) Bulletin d'Institut Egyptien.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ٣٦ عابدين (وارد تلغرافات) من سردار العساكر المصرية إلى خيري باشا . تلغراف تركي بالشفرة رقم ٤٤٩ في ٢ محرم سنة ١٢٩٣ « يناير ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظه ٨ سردان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق عن الحرب الحبشيه الثانيه) .

والطريق الثانى يؤدى الى مصوع والثالث الى عدرسة ويقع فى الجنوب. واذا أمكن التحكم فى المناطق الجبلية المحيطة به، كان من اليسير على القوات المصرية منع مرور قوات الحبشة من الطريقين الرئيسيين المؤديين الى أسمرة وعدرسة [١].

وفى ٢٨ يناير غادرت كل القوات المصرية موقع بعرزة وكانت تشتمل على سبع أورط مشاة وثلاث بطاريات ونصف بطارية جبلية وسبعة صواريخ وأورطة مهندسين وبلوكين من الفرسان [٢]. وبدأت تتسلق (عقبة بمبه) وتقع على الحدود المصرية الحبشية، «وعقبة بمبه (بنبه) هى العقبة الكبرى وهى صعبة المرتقى ومرتفعة جدا ويكتنفها جبال عاليه، واتجاه هذه العقبة من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى، والجهة الشرقية منه أعصب من الجهة الغربية والطرق الواقعة بين عقبة بنبه وعدرسة صعبة المرور جدا، وتزداد الصعوبة والوعورة كلما اقترب من موقع عدرسة [٣]».

وبوصولهم الى عدرسة تواردت اليهم الأنباء بأن الملك يوحنا كان يظن أن الحمله المصرية ستسلك نفس الطريق الذى سلكته الحملة الانجليزية من قبل، ولذلك حشد قوات ضخمة بمنطقة حوزين للتصدى لها. ولكنه عندما علم بأن الحملة متجهة الى

---

(١) المصدر السابق.

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى، محفظه ٨ سودان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق).

قياخور غادر مكانه ميمما وجهة شطر عدوة . ولذا كان من الأهميه بمكان أن تسرع القوات المصرية فى الاستيلاء على قياخور قبل أن تصل اليها قوات الملك يوحنا [١] .

وهنا برزت مشكلة النقل بشكل واضح ، فنظرا لقلة عدد دواب الحملة ، كثرت عدد المرات التى قطعتها الدواب جيئة وذهابا بين مصوع وبعرزة التى اتخذت كمركز تموين للقوات المصرية المهاجمة [٢] . وأدى هذا الى ضعف تلك الدواب وموت عدد كبير منها . هذا بالإضافة الى أن السروج التى وضعت على ظهور تلك الدواب كانت من النوع الردىء الصغير الحجم ، مما أضر بها ضررا بليغا . زد على ذلك الإهمال الشديد من قبل السياس المكلفين بالعناية بها ، فلم يهتموا كثيرا بعلفها أو سقايتها . « كما كانوا لا ينفكون عن النزاع والجدال مع بعضهم أثناء تحميل الدواب بصفة خاصة [٣] » .

وقد بلغت قوة الحملة المصرية بعد الإمدادات الجديدة التى وصلتها من مصر بما فى ذلك الخدم ١٤٫٧٠٠ جندى [٤] .

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تلغرافات) من سردار العساكر المصريه إلى خيرى باشا . ترجمه التلغراف التركى الشفرة رقم ٤٤٥ فى ٣ محرم سنه ١٢٩٣ « يناير سنه ١٨٧٦ » .

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٣ .

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى ، محفظه ٨ سودان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق عن الحرب الحبشيه) .

(٤) المصدر السابق .

واصل الجيش المصرى تقدمه من عدرسة الى قياخور فى طريق خال من الماء ، فتجشم الجنود متاعب كبيرة بسبب قلة المياة ولم تجد الدواب ماء للشرب فى تلك الليلة فباتت عطشى [١]. كما أن موقع قياخور نفسه لم تتوافر فيه المياه ، ولهذا لم تمكث القوة فيـــه سوى فترة قصيرة تمكنت فى خلالها من انشاء قلعة صغيرة للدفاع عنه والمحافظة عليه . ثم أبقت به بعض الجنود وتقدمت الى بلدة قرع حيث وقع اختيــار اللواء راتب باشا على إحدى المزارع التى تبعد مسيرة نصف ساعة غربى البلدة لاقامة الجند ، نظرا لتوفر المياه الصالحة للشرب بها ويشتمل هذا الموقع على إحدى عشرة قرية خاضعة لحكم أحد اتبـــاع الملك يوحنا ويدعى (بحر نجاشى) الذى لم يلبث أن قام بتقديم فروض الطاعة والولاء للحكومة المصرية بمجرد وصول قواتها اليه [٢] .

وفى ذلك الوقت طلب المدعو (لج براو) عمدة عدخولة الدخول فى طاعة الحكومة المصرية للإنتقام من الملك يوحنا الذى أحرق قراه بعد هزيمة أرندروب فى موقعة جندت ، لتخلفه عن الانضمام اليه فى تلك الحرب [٣] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تلغرافات) من سردار العساكر المصرية إلى مهردار الخديو . ترجمة التلغراف التركى الشفرة رقم ٤٧٢ فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ « أواخر يناير سنة ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تلغرافات) من سردار العساكر المصرية إلى سعادة خيرى باشا صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٥٠١ فى ٥ محرم سنة ١٢٩٣ « أوائل فبراير سنه ١٨٧٦ » .

كما وفد على مقر قيادة الجيش المصرى بعض المشايخ من جهات متفرقة وتحت إمرة كل منهم فصيلة من الجنود المسلحين بالمزاريق والدروع والقليل من البنادق للدخول فى طاعة الحكومة المصرية [١].

ونظرا لعدم صلاحية الموقع الذى أقام به الجنود من النواحى الاستراتيجية ، أختير موقع آخر يتلائم مع هذا الغرض ويبعد عن قرية قرع مسيرة ساعة من جهة الغرب . ومن مزايا هذا الموقع أنه يتسع لإقامة جيش قوامه خمسون ألف مقاتل ، وتتوافر فيه الشروط الضرورية من وفرة المياه والسيطرة على ملتقى طرق عديدة وخصوصا المؤدية الى قياخور . كما يسهل الإتصال منه بالخافر الأمامية التى اقيمت فى النقط المرتفعة المحيطة بالموقع عن طريق الأشارة ولا سيما أثناء الليل . [٢]

وأنشئت فى هذا المكان قلعة المهمات والجنود ويدخل فيها الخور الذى يمر به . ثم قام الجنود بقطع غابات الأشجار المحيطة بالموقع حتى لا تعوق العمليات الحربية . كذلك استعانت الحملة بخدمات دربان بنى عامر والشايقية المقيمين بسنهيت فى أعمال الاستكشاف [٣].
كما طلب حاكم الحماسين ووزير الملك يوحنا الدخول فى طاعة

---

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى ، محفظه ٨ سودان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاون عن الحملة الحبشيه الثانيه) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٢٧ عابدين «صادر تلغرافات» لإرادة سنيه إلى راتب باشا سردار العساكر المصريه . صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٢٥٩ ص ٤٢ فى ٧ محرم ١٢٩٢ « أوائل فبراير ١٨٧٦ » .

الحكومة « والتمس أن يظل هو حاكما على الجهات الممتدة من مارب الى حماسين ... .. فأجبنا التماسه وحضر و معه ماينوف عن ألفين من الخيالة فأكرمنا وفادته ...... وقد انضم اليه جمع كبير من العمد والشيوخ فى مقاطعة الحماسين ، فأعلنا بأن ولد دنكيل هو حاكم المقاطعة الممتدة من مارب الى لحماسين وأعطيناه وثيقة بذلك . » (١)

وتبعد قرع مقر قيادة الجيش المصرى عن مصوع مركز التموين الرئيسى بحوالى ٧٧ ميلا مقسمة على النحو التالى :

من مصوع الى ينقص ٢٠ ميلا
من ينقص « بعوزه ١٨ «
من بعوزة « عقبة بمبه ٦٫٧ «
« عقبة بمبا « عدرسه ١٫٧ «
« عدرسة « قياخور ١٦ «
« قياخور « قرع ٨٫٥ «

كذلك قامت قيادة الجيش بتوزيع بعض القوات على تلك المواقع ، فوضعت بينقص بلوكا واحداً من الجنود ، وفى بعرزة

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين « وارد تلغرافات » من سردار العساكر المصريه الى خيرى باشا . ترجمه التلغراف التركى الشفرة رقم ٨١ فى ١٦ محرم سنه ١٢٩٣ « ١٠ فبراير سنه ١٨٧٦ » .

أورطة واحـــدة وبطارية بلبل ، وبعدرسة ثلاثة بلوكات ومدفعين جبليين . [١]

ويذكر احمدعرابيمأمور الحملة أنه بالرغم من وفرة التموينات فى ذلك الوقت كان لا يصرف للجنود «إلا نصف المرتب من الخبز الناشف . ويعطى لكل نفر ١٠٠ درهم من اللحم البقرى ، أى ثلاثة أمثال المرتب من اللحم عملا بإرشاد رئيس أركان حرب حتى فشى فى الجيش داء (الدوسنتاريا) أى الاسهال . ولولا جودة الهواء لهلكت العساكر من الجوع والأسهال . [٢]

وبعد أن أقام راتب باشا بقرع وجه نـداءً الى أهالى الحبشة يوضح لهم فيه بأن القوات المصرية لن تتعرض لهم بسوء ، وأنما جاءت للإنتقام من الملك يوحنا ، فعليهم أن يخلدوا الى الهدوء والسكينة وألا يقدموا له أية مساعدة . [٣]

مكثت القوات المصرية فى موقع قرع من ٢ فبراير الى ٧ مارس سنة ١٨٧٦ ، وفى تلك الأثناء كانت تتلقى الأنباء يوميا عن

---

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصرالجمهورى دفتر ٣٦ عابدين «وارد تلغرافات» من سردار العساكر المصريه إلى سعادة خيرى باشا — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٥٠٠ ص ٩٧ فى ٥ محرم سنة ١٢٩٣ « أوائل فبراير ١٨٧٦ ».

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٤ .

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصرالجمهورى — محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق عن الحملة) .

تحركات يوحنا ومدى اقترابه من الخطوط المصرية . وكلما زاد تقدم الأحباش كلما زادت الصعوبات التى تواجهها الحملة . فنظرا لطول الأمطار بغزارة شديدة وبدون انقطاع ، أن أصبح من الصعب جدا على دواب الحملة القيـام بنقل المؤن والذخائر بين المواقع المختلفة فى هذه الظروف القـاسية[1] .

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين «وارد تلغرافات» من سردار العساكر المصرية إلى خيرى باشا . ترجمة التلغراف التركى الشفرى رقم ١٦٧ فى ٢٠ محرم سنة ١٢٩٣ (١٦ فبراير سنة ١٨٧٦) .

الفصل الثامن

دراسة مقارنة لحالة الجيشين المصرى والحبشى

قبل أن نخوض فى تفاصيل المعركة ، يجب أن نوضح خصائص كل من الجيشين المحاربين وإمكانيات كل منهما والميزات التى يمتاز بها، وطبيعة الأرض التى يحارب عليها لنكون فى حكمنا على نتيجة المعركة أقرب الى الصواب ما إستطعنا الى ذلك سبيلا .

هيئة القيادة وأركان حرب

إذا تناولنا قائد الحملة راتب باشا ، نجد أنه من أصل چركسى ويبلغ من العمر حوالى الخامسة والخمسين . كان أحد مماليك سعيد باشا ، وفى عهده سافر الى فرنسا للدراسة لمدة خمسة شهور . وبعد عودته رقى بسرعة الى رتبة البكباشى وسرعان ما قفز الى رتبة الأميرالاى . ويمتاز راتب باشا بالبرود والرزانة ويبدو مقطب الوجه ، وله إلمام كبير باللغتين الفرنسية والتركية ولكنه يفضل التحدث باللغة الأخيرة . أما عن معرفته باللغة العربية فقليلة ولا يقرأها الا نادرا وفى غير اتقان [1] . ومن هذا العرض السريع لتاريخ حياة راتب باشا يتضح لنا أنه لم يكن ملما ألماما كبيرا بالثقافة العسكرية .

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 166 & 167.

وإلى جوار راتب باشا توجد هيئة أركاب حرب القيادة ـ وهى باستثناء البكباشى تورنيزن الذى كان يلم بست لغـات ـ لا تضم شخصيات على درجة كبيرة من الثقافة العسكرية أو الكفاية الحربية، وذلك لثقافتهم المحليـة المحدودة . ويصف الجنرال داى هؤلاء الضباط بقوله : « بأن ليست لهؤلاء الضباط أية خبرة ، فهم لا يعدّون جنوداً إلا بالإسم والحلة الرسمية فقط . »[١]

أما عن الأمير حسن باشا الذى ألحق بالحملة برتبة أميرالاى أركان حرب فقد أدخله والده المدرسة الحربيـة ببرلين ، وألحق بآلاى الحرس السوارى برتبـة الملازم[٢] . ثم منحته المدرسة الحربية أجازة لمرافقة الحملة الحبشية وذلك للتدريب على الحرب بصفة عمليـة ويبلغ الأمير حسن من العمر اثنين وعشرين عاما ، ويتكلم العربية والتركية والفرنسية والانجليزية والألمانية .

وقد بعث الخديو اسماعيل أمرا إلى رئيس هيئة اركان حرب الحملة بإسناد أحد أقسام الهيئة الى الأمير حسن . وفى نفس الوقت أصدر أمرا آخر الى راتب باشا بابقاء الأمير الى جانبه والمحافظة عليه . وبذلك أصبحت حماية الأمير حسن باشا فى المقام الأول بالنسبة لقائد الحملة ، أما انتصار الجيش أو هزيمته فتأتى فى المرتبة الثانية . كما كان بصحبة الأمير حاشية تبلغ الخمسين .[٣]

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٤٣ عابدين إلى على بك ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٤٦ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٢ « أكتوبر ١٨٧٥ » .
(3) Dye ; Moslem Egypt P. 187.

وإذا نظرنا إلى مسألة إلحاق الأمير بالحملة نجد أنها لم تعد عليها بأية فائدة، فلم يكن الأمير على درجة كبيرة أو قليلة من الكفاية العسكرية ، فهو صغير السن وقريب عهد بالمدرسة الحربية فلم يكن قد أتم دراسته العسكرية بعد، بل على العكس من ذلك فقد سبب وجوده الكثير من المتاعب . ويبدو ذلك واضحا من اهتمام الأمير فى أول الأمر بالتفصيلات التافهة بينما كان يرجىء البت فى المسائل الخطيرة يوما بعد يوم [١] .

وإذا انتقلنا الى رئيس هيئة أركان حرب الحملة الجنرال لورنج الأمريكى الأصل ، نجد أنه يبلغ من العمر الثانيـــة والستين عاما واشترك فى الحرب الأهلية الأمريكية وفى حرب المكسيك سنة ١٨٤٦ وفقد فيها أحد زراعيه . وكذلك خدم فى ولايات أمريكية متعددة . أما عن طباعه فتغلب عليه الطيبة ، ولكنه عادة يبدو متبرما ، ويؤخذ عليه سرعة تأثره فى بعض الأوقات واندفاعه فى العمل بعصبية وسرعة وهذيانه بكلام غير مفهوم . [٢] ومن العقبات الهامة التى واجهته تعذر التفاهم مع قائد الحملة راتب باشا شخصيا ، فلورنج لم يكن يعرف من الفرنسية إلا القليل بينما كان راتب باشا ملما بها إلماما كبيرا ولا يفهم الانجليزية . ومن عيوبه أيضا أن تحيزه فى بعض الأوقات لرأى معين كان يشوه حكمه على الأشياء .

---

١ — المصدر السابق ص ١٧٠
٢ — المصدر السابق ص ١٦٤

ولم يقع الإختيار على لورنج فى أول الأمر كرئيس لهيئة اركان حرب الحملة، بل أختير الأميرالاى داى لهذا المنصب، ولكنه اعتذر عن قبوله لعدة أسباب: أولها الحسد الذى يكنه ضباط الجيش الأتراك للضباط الأجانب؛ والحقد الذى يضمره ضباط الصفوف لضباط هيئة أركان حرب سيحول بينه وبين القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

ثانيا: عدم ثقته فى مقدرة أى من الباشاوات الأتراك فى قيادة الحملة بصفة عامة وراتب باشا بصفة خاصة.

ثالثا: إن بُعد راتب باشا عن سلطة الحكومة المركزية سيجعله أكثر حرية وجرأة فى أفعاله مما سيجعل تصرفاته غير محتملة. ولذا اقترح تعيين الجنرال لورنج بدلا منه عله يوفق فى مهمته الجديدة[1].

أما عن بقية أعضاء هيئة أركان الحرب فمعظمهم من الأمريكيين الذين كانوا موضع شك من قبل القائد العام للحملة ومن حاشيته على السواء. هذا بالإضافة الى البغض الذى يكنه الضباط الأتراك لضباط أركان الحرب المنافسين لهم فى السلطة. كما كان الضباط المصريون ينظرون اليهم نظرة عدم إرتياح لكونهم أجانب عن مصر، فى وقت بدأت فيه الدول الأجنبية تتدخل بشدة فى شئون مصر، تحقيقا لمصالحها ومصالح رعاياها على حساب مصر والمصريين.

كذلك نجد أن كلا من هيئة أركان حرب القيادة العامة،

١ — المصدر السابق ص ١٥١

وهيئة أركان حرب الحملة كانت تعمل منفصلة عن الأخرى كأنهما هيئتان منفصلتان ، مع أنهما فى حقيقه الأمر هيئة واحدة .

هذا فضلا عن التفرقة بين الضباط المصريين والضباط الأجانب فى المعاملة . إذ كانت الخطابات التى يرسلها الضباط المصريون إلى القيادة العامة أو إلى ذويهم ، ترسل مقفلة فى ظروف مختومة بالشمع الأحمر إلى مكتب قائد الحملة ، بينما ترسل خطابات الضباط الأجانب مفتوحة الى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى - الجنرال استون - بالقاهرة . كما كانت ترد الرسائل الخاصة بهؤلاء الضباط الى هيئة أركان حرب الحملة مفتوحة أيضا ، فاعتبر هؤلاء الضباط هذا العمل ماسا بكرامتهم وباخلاصهم كجنود فى خدمة الحكومة المصرية [١] .

كما كانت المراسلات التى تبعث بها قيادة الحملة إلى نظارة الجهادية ترسل الى مصوع حيث يتولى أحمد بك محافظ المدينة ارسالهـــا مباشرة الى قصر عابدين وليس الى نظارة الجهادية وهى المختصة بكل ما يتعلق بالشئون الحربية . وقد وجه الجنرال داى نقداً شديداً لهذه الطريقة التى تؤخر البت فى الأمور الحربية بصفة عاجلة .

ولكننا لا نتفق معه فى هذا الرأى لأن شئون مصر فى ذلك الوقت - سواء كانت حربية أو مدنية - تعرض على الخديو اسماعيل للبت فيهـا مهما قل خطرها . فارسالها الى مقر الخديو مباشرة فيه

---

١ ـ المصدر السابق ص ١٣٢

توفير للوقت والجهد ، نظرا لأن نظارة الجهادية لن تستطيع الفصل فيها إلا بعد موافقة الخديو .

ومن نقاط الضعف الهامة التى كانت تنخر فى كيان تلك الحملة - بل فى كيان الجيش المصرى بأسره - النفور المتبادل بين الضباط المصريين والجراكسة ، فجميع ضباط الحملة العظام تقريبا من الجراكسة المتغطرسين الذين يفخرون بدمائهم الأرستقراطية الزرقاء ، ويتعالون على زملائهم من الضباط المصريين الذين ينحدرون - كما يصور لهم خيالهم السقيم - من سلالة الفلاحين ذوى الدماء الرخيصة [١] .

هذا بالاضافة الى أن اختلاف اللغات قد خلق مشكلة مستعصية للحملة فاللغات التى كانت مستعملة لا تقل عن أربع لغات وهى : العربيـــة والتركية والانجليزية والفرنسية . زد على ذلك النقص المستمر فى عدد دواب الحملة ، ووعورة الأرض وهطول الأمطار فى ذلك الوقت .

تقرير الجنرال استون

وهذا الضعف الظاهر فى تكوين الحملة واعدادها ماهو إلا صورة مصغرة لما كان يعانيه الجيش المصرى من ضعف شمل

---

١ ــ المصدر السابق ص ١٦٣

نواحى متعددة وخير دليل نقدمه لإثبات تلك الحالة التقرير [١] الذى كتبه الجنرال استون بعد تعيينه فى منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى بستة شهور والذى رفعه إلى نظارة الجهادية متضمنا نتائج دراساته وملاحظاته عن الجيش وتوصياته بشأنه وذلك فى عام ١٨٧٠ .

وقد عالج الجنرال استون فى تقريره هذا كل سلاح من أسلحة الجيش المصرى على حدة مبينا مافيه من أوجة القوة ونقط الضعف، وبدأه بسلاح المشاة ، فذكر بأنه يشتمل على جنود أقوياء أصحاء الأبدان دربوا تدريبا جيدا ولهم قدرة على احتمال المشاق . وعلى العموم فحالتهم جيدة إذا ماقورنت بحالة القوات التركية أو قوات الدول الشرقية فى ذلك الوقت [٢] .

أما عن سلاح الفرسان فيتكون من جنود مهرة يجرى تدريبهم بإنتظام ، ويمتطون صهوات جياد أصيلة ، ويستطيع هؤلاء الجنود أن يقوموا بدورهم فى وقت الحرب على أتم وجه . أما عن البنادق التى يستعملونها فضعيفة الأثر ويجب أن تستبدل بأخرى قوية [٣] . وهذا الوصف الذى ذكره الجنرال استون

(1) Abdin Corrsp. Fran. Doss. No. 50-1 Le Caire 15, Dec. 1870.

(2) Abdin Amr. Doc. vol. 6 despt No. 19 Butler to Fish Oct. 29, 1870.

(3) Abdin Corrsp. Farn. Doss. No. 50-1 Le Caire 15, Dec. 1870.

رئيس هيئة أركان الحرب يختلف عما ذكره المستر جورج بتلر - قنصل أمريكا الجنرال بمصر فى سنة ١٨٧٠ - من أن هذه القوات غير مدربة اطلاقا «Utterly Undrilled» . [١]

ويضم سلاح المدفعية نواة صالحة من الجنود المدربين والضباط المثقفين ، ولكن تنقصهم سرعة الحركة التى تتطلبها المناورات العسكرية . كما أن طلقات مدافعهم ليست قويه لأن المدافع من النوع الردىء . أما عن عدد بطاريات هذا السلاح فقليلة [٢] . وقد رمى المستر جورج بتلر (قنصل امريكا الجنرال بمصر) هذا السلاح بالنقص وعـــدم الاستعداد بشـكل يدعـو الى الرثاء [٣] . Wretchedly deficient.

وقد وجه الجنرال استون نقدا شديدا إلى نظارة الجهادية لتركيزها كل مايتعلق بشئون الحملة من أمور سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فى يدها . وكذلك لم يكن بالجيش هيئة أركان حرب عامة أو خاصة ، كما كان الجيش يفتقر الى سلاح للمهندسين وإلى اسلحة أخرى تتولى شئون النقل والمهمات والتموين . وكان على الجنرال استون أن يسد هذا النقص .

(1) Abdin Amr Doc. vol. 6 despt, No. 19, Butler to Fish. Alex. in Oct. 20, 1870.

(2) Abdin Corrsp. Fran. Doss. No. 50-1 Bureau de chef d'Etat Major in 15 Dec. 1870.

(3) Abdin Amr. vol. 6 despt. No. 19, Butler to Fish. Alex. in Oct. 20,1870.

وبالفعل قام بإنشاء هيئة أركان حرب الجيش، ووضع ترتيباً جديداً يحدد اختصاصات نظارة الجهادية وفروعها المختلفة ويوضح العلاقة بين هذه الهيئة ومختلف الفروع ، ومن الإصلاحات الأخرى التى أدخلت على الجيش قصر الترقى على من له إلمام بالقراءة والكتابة من ضباط الجيش بعد تأدية إمتحان خاص [١]. كذلك كوفىء الضباط الذين قاموا بمجهود على كتأليف الكتب العسكرية أو ترجمتها بترقيتهم إلى رتب أعلى ، وذلك تشجيعاً للروح العلمية بين صفوف الضباط [٢]. ولكن رغم هذه الجهود الكبيرة التى بذلت فى الإصلاح فلم يرتفع شأن الجيش لأسباب مختلفة أهمها :

أولا : كان الجيش المصرى فى عهد اسماعيل يفتقر [٣] الى القائد المحنك الذى يستطيع أن يبث روح الجهاد والتضحية فى نفوس الجند وأن يلهب حماستهم ويذكرهم بما ناله آباؤهم وأجدادهم من انتصارات ، « فالجيش لا يخرج عن كونه مقذوفا ناريا قويا يحتاج الى الرامى الماهر [٤]» . وهذا الرامى أو القائد بمعنى آخر يجب أن

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ١٩٣٥ (أوامر جهادية) عربى وثيقة بدون رقم ص ١١٦ أمر الى ديوان الجهادية فى ٦ ذى الحجه سنـه ١٢٨٧ (فبراير سنة ١٨٧١)

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظه ١٠ (جهادية) وثيقة تركية رقم ١٣٤ أمر الى ناظر الجهادية فى ١٢ ربيع ثانى سنه١٢٨٩(سنه١٨٧٢)

(3) Abdin Corrsp. Fran. Doss. No. 50/1 Rostilas aKhédive Isınail, Le Caire Mai 9, 1870.

(٤) المصدر السابق

يتكون من ضباط الصفوف وليس من ضباط أركان حرب . كذلك لم يجد الجيش المصرى ضالته المنشودة فى شخص اسماعيل الذى لم يرث عن أبيه الروح الحربى ولا خوض المعارك أو الحروب .

ثانيا : ان وقوف كبار ضباط الجيش فى وجه هيئة ضباط أركان حرب وعدم السماح لهم بالإتصال بجنود الصفوف للإشراف على تدريبهم ومعرفة مايحتاجون اليه جعل من هذه الإصلاحات حبرا على ورق . فظل الجيش المصرى يتكون من كتائب مختلفة لا رابط بينها . هذا فضلا عن الإرتباك المـالى الذى شل كل حركة للإصلاح فى أواخر عهد اسماعيل .

ومع ذلك نجد أن الجيش المصرى قد امتاز عن الجيش التركى المعاصر له بميزة هامة وهى ثقافة ضباطه العسكرية . فهؤلاء الضباط قد تلقوا تعليما فنيا خاصا فى مدارس خاصة على أيدى معلمين مهرة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد امتاز عنه ايضا بإتخاذ الإمتحان أساسا للترقى ، وبذلك انعدم الضباط الأميون بالجيش المصرى بينما كان لا يزال بالجيش التركى من أمثال هؤلاء من يعدون بالعشرات .[1]

الجندى المصرى فى الميزان

أما عن مقدرة الجندى المصرى وكفايته ، فنجد أن غالبية الجنود كانوا من طبقة الفلاحين ، وهؤلاء يتمتعون ببنية قوية بفضل

(1) Mc Coan ; Egypt as it is P. 10 & 102.

دأبهم على العمل المتواصل فى الزراعة من شروق الشمس حتى غروبها . فهو إذن من هذه الناحية يمتاز بالمثابرة والجلد . كذلك يتصف الجندى المصرى بالطاعة العمياء لرؤسائه ، سواء كان ذلك عن رغبة أم رهبة (١) .

ومما اتصف به أيضا واعترف به رؤساؤه من الضباط الأجانب الذين خدموا فى الجيش المصرى، قوة الاحتمال. فيذكر الاميرالاى الأمريكى داى بأن الجنود الفلاحين يتمتعون بالصبر وقوة الإحتمال الى حد غير مألوف (٢) . ولكن الجنرال شايية لونج - من ضباط أركان حرب - يقول « إن الفلاح المصرى ليس شجاعا ولكنه مزارع صبور (٣) » .

ولكننا لانوافق شايية لونج على ماذهب اليه من إنكار شجاعة الجندى المصرى فى القتال ، فالحروب التى خاضها ببسالة فى شبه جزيرة المورة وفى الشام وشبه جزيرة القرم لأكبر دليل على دحض مايدعيه . فشجاعة الجندى المصرى كانت حقيقة واقعة ولكن الضباط الاجانب نسبوها إلى الدافع الدينى فقط (٤) .

كذلك إمتاز الجندى المصرى بالإخلاص ، فهو مخلص أمين يعتمد عليه ويوثق به (٥) . وإلى جانب ذلك يتوافر فيه الذكاء

---

(1) Dye : Moslem Egypt P. 42.

٢ — المصدر السابق ص ٤٤ .

(3) Chaillé Long ; Les Trois Prophêts P. 88.

(4) Dye ; Moslem Egypt. P. 45.

٥ — المصدر السابق ص. ٥٧

ولكن قيل بأنه ذكاء المقلد الذى لا يفكر فى المسببات أو الظروف أو النتائج [١] .

أما عن كفايته فى القتال فهو محارب جيد ، يقاتل بصبر وجلد وخصوصا خلف المتاريس والإستحكامات . وقد تعوّد على الحرمان بحيث نجده ينام فى معسكره ملتحفاً ببطانيته على الأرض العراء ، واضعا رأسه فوق مخلته ، لا يملك حتى لوحا من الخشب لينام عليه ، وبالرغم من ذلك فهو لا يشعر بأى حرمان . [٢]

ومما ذكره السير دراموند وولف فى خطابه إلى المركيز سالسبورى بشأن الجنود المصريين فى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٦ قوله : « إن الجنود المصريين يمتازون ببعض الصفات العالية ، فقد تعودوا الصبر بوجه باسم ، وجبلوا على العمل ، ويحاربون بمهارة من وراء الاستحكامات . ولكنهم على العموم ليسوا على مقدرة كبيرة فى الحروب المكشوفة » . [٣]

ومع ذلك يمكننا القول بأن طبيعة أرض مصر السهلة ، وحياة الهدوء والاستقرار التى يعيشها الفلاح فى ممارسة الزراعة فى هدوء واطمئنان على ضفاف النيل ، قد جعلته يميل إلى الهدوء والإستقرار ، وهذا مالا يتفق مع طبيعة الحياة العسكرية . ولهذا قيل بأن الجندى

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .

(2) Abdin Cor. Franç. Doss. No. 50/1 Hans Waschinhusin «Journal de Cologne» 1870.

(2) The Blue Books-Egypt No. 3 Corrs. Respecting reorganization of the Egyptian Army P. 2

المصرى ليس محاربا بطبيعته ، ومن ثم تفوقت عليه عناصر أخرى من هذه الناحية مثل البدو والأحباش .

امكانيات الجيش الحبشى

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من الميدان نجد الجيش الحبشى وعلى رأسه الملك يوحنا الذى تولى الحكم بالقوة بعد وفاة الملك ثيودوراس، ولم تكن كلمة رؤوس الأحباش (حكام المقاطعات) مجمعة عليه ، فكان له منافسون فى العرش ، وأعداء كثيرون منهم ولد دنكيل حاكم الحماسين ومنليك ملك شوا ، والرأس بارو وغيرهم . وكان فى استطاعة مصر لو أحسنت اختيار القائمين على أمور الحملة أن تستغل هذا التنافس إلى حد كبير .

ولم يكن ليوحنا جيش أسوة بسائر الدول المتحضرة ، بل كانت الطريقة التى تتبع فى حالة تعرض البلاد لخطر خارجى ، أن يطلب يوحنا من رؤوسه إمداده بالرجال اللازمين لمواجهة هذا الخطر . وفى نفس الوقت يقوم بالطواف فى عاصمة ملكه وفى البلاد المجاورة له مناديا بالحرب ، حاثا الأهالى على القتال ، ويعاونه فى ذلك قساوسة الحبشة ، فيجتمع لديه عدد كبير من الأهالى من محاربين ونساء وأطفال كعادتهم فى القتال . ثم تندفع هذه الجموع التى تشكل جيشا كبير العدد فى سيرها. وتنقض على القرى المعادية وتسطو على كل ما تصل اليه أيديها من مؤن لتتزود بها كى تواصل القتال . فلذا نجد أن ملك الحبشة لا يكبد نفسه مصاريف طائلة

فى إعاشة جنوده أسوة بالدول المتمدنة ، لأن هذا العمل يخالف عاداتهم ، فضلا عن كونه لاقدرة له على الصرف [(١)] » .

وليست لهؤلاء الجنود « ماهية ولا مرتب ، بل يعطى لهم ماقد يغتنموه من الغنائم فى الحروب ، وأن الحكومة لاتعطيهم شيئا فى حالة عدم وجود الغنائم » [(٢)]

أما من ناحية النظام الحربى ، فالجنـــدى الحبشى يجهل النظم الحربية الحديثة جهلا تاما . إذ تسير القوات الحبشية دون أى نظام ويختلط المشاة بالفرسان . كاأن فرسانهم « إذا أرادوا الهجوم يسوقون خيلهم بالضرب غير المنقطع بالكرباج الذى يحملونه فى أيديهم لأنهم لاعهد لهم بالمهموز أوما يماثله . ويحمل كل جندى معه سلاحه وذخيرته » . [(٣)]

ولا تعرف القوات الحبشية قيادة حربية تنظم حركاتها ، فالأحباش لا يعرفون التنظيمات الحربية الحديثة من تقسيم قواتهم إلى قلب وجناحين . كما لاعهد لهم بإقامة النقط الأمامية أو الخلفية . ولهذا السبب كان يوحنـا يتحاشى الدخول فى حرب نظامية فى

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاون عن الحملة الحبشية الثانية) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظه ٢٩ « معيه تركى » من موسى حمدى حكمدار السودان إلى صاحب السعادة المهـردار وثيقه رقم ٧٥ فى ١٤ صفر سنه ١٢٧٩ « أغسطس سنه ١٨٦٢ » .

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى محفظه ٨ سودان سنه ١٢٩٢ « تقرير رجب صديق المعاون » .

مناطق سهلة ، بل يعتمد فى حربه على عنصر المفاجأة الى حد كبير وإلى مهاجمة القوات المنعزلة وكذلك القوات المتأخرة أو التى تعسكر فى النقط الأمامية .

ويعتمد الأحباش فى تكتيكهم الحربى أيضاً على اجتذاب العدو الى داخل البلاد والتعرض له فى المضايق والأماكن الوعرة التى لا يسهل فيها التحرك بيسر وسهولة ، وخصوصا إذا كان يعتمد فى عملياته الحربية على المعدات الثقيلة وعلى البنادق البعيدة المدى . فأفضل وسيلة يلجأ اليها الأحباش لإبطال مفعول تلك المعدات الحديثة هو الإلتحام بأجسادهم والدخول فى معركة حاسمة بأعداد هائلة تستخدم فيها الأسلحة البيضاء . أى أن الأحباش قد نجحوا فى الإستعاضة عن جهلهم بالنظم الحربية الحديثة وافتقارهم الى الأسلحة الجديدة الفتاكة ، بطريقة المفاجاة والهجوم بأعداد ضخمة فى مناطق لا يسهل فيها للمهاجم استخدام أسلحته استخداما صحيحاً ، مستغلين فى ذلك طبيعة بلادهم التى يعرفونها حق المعرفه .

أما عن أسلحته فكان معظم أفراد الجيش يحمل الهراوات والمزاريق والرماح والأسلحة البيضاء ، والقليل منهم يحملون بنادق قديمة قريبة المدى ، وليست ذات أثر فعال فى سير الحرب . كما كان لدى الجيش الحبشى بعض قطع من المدفعية ، بعضها منح من قبل الحكومة الانجليزية ، والبعض الآخر أخذ من المصريين فى حملة أرندروب . ولكن تلك المدافع كانت عديمة الفائدة بالنسبة

اليهم نظراً لإفتقارهم إلى من يستطيع استخدامهـــا بكفاية ومهارة[١] .

ولم يـكن للأحباش فى ذلك الوقت دراية بالخدمات الطبيـة ، بل كانت معرفتهم لهذا النوع من العلوم تقوم على السحر وكتـابة الأحجبة والرقية والخزعبلات . وأن فن الجراحة كما يعرفونه ينحصر فى عمليتين لا ثالث لهما[٢] : الأولى تتلخص فى أنه إذا أريد إخراج احدى الطلقات من جسم المصاب ، كان عليهم أن يضعوا نوعا من أوراق الشجر على موضع الجرح لمدة نصف ساعة ثم تنـتزع بعد ذلك ليوضع عليها شىء أشبه بالسوار ، ثم تستخرج الطلقة من العضو المصاب بطريقة المص .

والعملية الثانية : أنه فى حالة إصابة عضو من أعضاء الجسم بطلق نارى أو بطعنة من رمح ، والتأكد من عدم صلاحيته للعلاج ، أن يبتر هذا العضو بوساطة حجرين .

الجندى الحبشى فى الميزانه

هذا فيما يتعلق بالجيش الحبشى بصفة عامة ، أما فيما يختص بالجندى الحبشى كمحارب فلا جدال فى أنه محـــارب من الطراز الأول .

---

١ — المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى محفظه ٢٩ « معيــه تركى » من موسى حمدى حكمدار السودان إلى مهردار الخديو ، وثيقه رقم ٧٥ فى ١٤ صفـر سنه ١٢٧٩ « أغسطس سنه ١٨٦٢ » .

(2) Dye : Moslem Egypt, P. 47.

فبالرغم من جهله بالنظم الحربية الحديثة فقد عوضه ذكاؤه ودهاؤه الشديد عن هـذا النقص . فله خبرة كبيرة بطبيعة بلاده وبأنواع الحروب التى تتلاءم مع تلك الطبيعة ، ومقدرة تامة على اجتذاب العدو واستدراجه الى المناطق المناسبة له لبدء القتال . كما يمتاز بمقدرة فائقة على تسلق المرتفعات والأشجار بسهولة عجيبة تدعو إلى الدهشة وذلك للإنقضاض على العدو كالصاعقة .

وإن درايته الواسعـة بأساليب الحرب فى الجبـال والمناطق الوعرة تفوق درايته فى أى فن آخر من فنون القتال . فنجد مثلا أنه يقوم بصنع ذخيرته وحرابه بنفسه ، وكذلك الأقواس والسهام ، ويتولى بنفسه أيضا صنع طلقات البنادق والطبنجات من الحـديد الخام . ولكن نظرا لعدم إلمـامه إلمـاما كافيا بعملية صهر الحديد وسبكه لم تكن مصنوعاته من الحديد على درجـة كبيرة من الصلابة[١] .

وخلاصة القول فالجندى الحبشى محـارب بطبعه ، ولكنـه يتصف بالغرور وبالحب للثأر . وهو نشط وسريع التأثر ، محب لأعمال الشغب والفوضى . ويمتاز أيضا بجرأة وتهور وعدم مبالاة بما يحدق به من أخطار . وكما يقول الأميرالاى داى، وبالاختصار

(١) المصدر السابق .

فهو حاد البصر يجيد الرماية ، وذكى ، شجاع ، متكبر يتعشق الحرية فى الحرب والصيد . » (١)

وإذا وضعنا كل هذة المميزات التى يتمتع بها جنبا الى جنب ، بالإضافة الى كثرته العددية ، وطبيعة أرضه الملائمة لإستعداداته الحربية ، وقارنا بينها وبين ماعليه الجيش المصرى المهاجم من قوة وضعف ، ووازنا بين نقط القوة والضعف فى كل منهما ، أمكننا أن نرجح كفة الجيش الحبشى قبل أن نبدأ الدخول فى تفاصيل المعركة القادمة .

(١) المصدر السابق .

الفصل التاسع

معركة قرع

أصبح من المقرر أن تفاجىء القوات الحبشية مقدمة الجيش المصرى بين ساعة وأخرى. وبدأت القيادة المصرية تحس بأن الحلقة المضروبة حولها تضيق شيئا فشيئا، وأن من الواجب عليها القيام بأى عمل للخروج من تلك الحلقة. فأرسلت الكابتن أيرجنس لاستطلاع مواقع الأحباش وتقدير عدد قواتهم ومعرفة خط سيرهم. وقد قام ايرجنس بهذا العمل بمصاحبة القس الفرنسى دوفلو. ولم يكن هذا القس موضع ثقة الضباط المصريين من أمثال أحمد عرابى وزملائه. وفى حقيقة الأمر فإن هذا الشك له ما يبرره، فالمبشرون الفرنسيون كانوا يعملون فى صفوف الأحباش لتعبئة الشعور الحربى ضد مصر. كما أن موقف فرنسا من مصر لم يكن يخفى على أحد من المسئولين المصريين، وقد أوضحنا من قبل كيف أن نائب القنصل الفرنسى سارزاك Sarzac قد نجح فى نقل الأسلحة الفرنسية المرسلة إلى الحبشة عبر الخطوط الحربية المصرية خلال حملة أرندروب.

دلت التحريات التى قام بها أيرجنس على أن قوات يوحنا تقترب من المواقع المصرية، وتتقدم فى جبهة يتراوح طولها بين

ستين وسبعين كيلو مترا . عندئذ بدأت القيادة المصرية تشعر بخطورة الموقف وتقدر القوات الحبشية الزاحفة حق قدرها . وكلما زاد أقتراب العدو من موقع قرع ، كلما اشتدت رغبة الضباط الچراكسه فى الانسحاب وتجنب الاصطدام .

وفى هذا الموقف الحرج ، كان لابد أن تتعاون هيئة أركان حرب الحملة مع قيادة الجيش لتدبير الأمر ، ولتنفيذ خطة موحدة بإزاء هذا الخطر الداهم . ولكن حدث العكس إذ نجد أن الجنرال لورنج رئيس هيئة أركان الحرب يحاول التنصل من المسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقه بالاشتراك مع قيادة الجيش بعد أن فشل فى اقناع راتب باشا بوجهة نظره ، وترك له وحده مهمة التصرف فى الأمر بالطريقة التى يراها ، ليكون مسئولا بمفرده دون سواه عن كل النتائج التى تترتب على ذلك . (١)

وتفصيل ذلك أن الجنرال داى مساعد رئيس هيئة أركان حرب اقترح — فى ذلك الوقت — على قائد الحملة إحداث بعض التغييرات فى مواقع القوات المصرية ، فبدلا من بقائها فى سهل قياخور ، عليها أن تحتل قمم الجبال المحيطة بهذا الموقع وإنشاء الاستحكامات اللازمة للدفاع عن ممر قياخور . على أن تصدر الأوامر الى الحامية الموجودة بقلعة قرع بأن تكون على أهبة الاستعداد لصد أى هجوم مفاجىء عليها ، وكذلك للحاق بالقوة المعتصمة فوق مرتفعات قياخور فى

(١) المصدر السابق .

أى وقت من الأوقات . ولكن هذه المقترحات لم تنل موافقة راتب باشا (١) وبذلك أصبحت هناك ثغرة بين حامية قياخور وحامية قلعة قرع كان من الضرورى على القيادة المصرية أن تسدها . وبعد مناقشات طويلة أمكن اقناع القائد العام بالعدول عن سحب حامية قياخور ، ولكنهم فشلوا فى حمله على ضم حامية قرع اليهـــا .

ومن سوء حظ الحملة أن انعدم التعاون بين قائدها راتب باشا وبين رئيس هيئة أركان الحرب الجنرال لورنج ، فكان القائد العام لا يلجأ الى أخذ مشورة لورنج إلا فى المسائل الهـامة جدا والتى يخشى البت فيها بمفرده حتى لا يتحمل مسئوليتها وحده . وفى نفس الوقت قلما كان يأخذ برأيه .

وقد أسفر عدم التعاون والانسجام بين القيادة من ناحية وهيئة أركان الحرب من ناحية أخرى الى اختلاف وجهتى نظرهما بشأن المعركة . فبينما كانت القيادة تصر على بقاء القوات المصرية متفرقة كانت الهيئة تعمل جاهدة على تركيزها فى المواقع الأمامية لتغطية ممر قياخور وللدخول فى معركة فاصلة مع قوات الملك يوحنا .

وصف ميدان المعركة (أنظر خريطة رقم ٥)

يمتد سهل قرع الذى اختير ليكون ميدانا للمعركة من الشمال الى الجنوب مسافة تقرب من سبعة أميال ، ويتراوح عرضه بين

(١) المصدر السابق .

ميل وميلين و تغطيه أحراش كثيفة تساعدقوات المشاة على الاختباء خلفها ، ولكنه متسع بحيث يسمح لقوات المشاة أن تتحرك فى أى اتجاه . وتحيط بهـذا السهل المرتفعات من كل جانب ولكنها لا تعوق عبور المشاة لكثرة ما بها من فتحات تصل السهل بالقرى المجاورة له . وفى جنوبه قامت القوات المصرية الرئيسية بحفر الخنادق وإنشاء المتاريس التى يحتمى خلفها مايقرب من ٧٧٠٠ جنـدى ، تضم بعض فصائل من الفرسان وعددا من مدافع كروب وصلب وأربع بطاريات نحاسية . بالإضافة الى ستة مدافـع جبليـة وسبعة صواريخ .

أما حامية قياخور فتقع على بعد ثلاث ساعات خلف القوات الرئيسية بقرع ، وتحتل سهلا تكتنفه الكثير من المرتفعات ، ويمكن الوصول إليه عن طريقين : أحدهما من شماله ويصله بسهل حواله ممر ضيق . والآخر فى جنوبه ويربطه بسهل قرع ممر متسع شديد الإنحدار . وفى وسط سهل قياخور يوجد تل مرتفع اتخذته حاميتها بقيـادة عثمان باشا مقرا لهـا . وتتكون الحامية من حوالى ٢٥٠٠ جندى من المشاة وثلاث فصائل من الفرسان وصاروخين وست قطع من المدافع الجبلية . ونتيجة لطبيعة الأرض المحيطة بهذا الموقع ، أصبح فى عزلة عما يجاوره من قوات عسكرية، وفى نفس الوقت فـلا تستطيـع قـواته الإنسحاب أو الهرب عند الحاجة .

وبهـــذا التوزيع السيء للقوات العسكرية المصرية أصبحت القيادات الأربعة بعرزة وعدرسة وقياخور وقرع فى معزل تام عن بعضها . وكان فى استطاعة الملك يوحنا أن يهددها جميعا ، وأن يقضى على كل واحـدة منهـا على انفراد دون أن تتمكن القيادات الاخرى أن تخف لنجدتها . ومن هنا كانت الخطورة فى أن يركز يوحنا هجومه على قياخور ويقضى على قواتها ، ويقطع خط الرجعة على القوات الرئيسية بسهل قرع دون أن تستطيع المواقع الأخرى انقاذها . وهذا ما كان يقلق بال القيادة العامة للجيش (١) .

مكثت القوات المصرية بسهل قرع من ٢ - ٧ مارس سنة ١٨٧٦ (٢) وكانت تتلقى خلال تلك الفترة الأنباء اليومية عن تحركات الأحباش وقد راجت الشائعات بأن الملك يوحنا ينوى مهاجمة المصريين فى يوم الثلاثاء ٧ مارس وذلك لتفاؤله بهذا اليوم (٣) .

ونظرا لتشتت القوات المصرية فى مواقع منفصلة بعضها عن بعض ، كان يرى القائد العام للحملة أن تظل الجنود المصرية داخل استحكاماتها للدفاع عن نفسها ومقاومة الأحباش . ولكن كلا من الجنرال لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة ومساعده الأميرالاى

---

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 338

(2) Bulletin d'Institut Egyptien. Von Thurneysen.

٣ — المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ « دفتر شامل عن الحرب الحبشية الثانية وضع رجب صديق المعاون » .

داى كان يعارض هذا الرأى » ويصر على وجوب خروج جزء من الجنود المعسكرين فى قلعة قرع للمحاربه[١] »

وأخيرا عندما بدت طلائع الأحباش تلوح للقوات المصرية دق ناقوس الخطر واتخذ الجنود المصريون موقف الإستعداد. وأشيع بأن الملك يوحنا يعتزم مهاجمة موقع قياخور بقوات كبيرة. وفى صبيحة ٧ مارس قرر راتب باشا إنزال بعض القوات المصرية إلى ميدان القتال. وغادرت تلك القوات التى تتكون من ثمانى أورط وبلوكين ونصف من الفرسان و١٢ قطعة مدفعية جبليـــة وأورطتين من المشاة كاحتياطى للمعركة، استحكاماتها وتقدمت للإنضمام إلى حامية قياخور تحت قيادة عثمان رفقى باشا[٢] .

معركة قرع

عندما وصلت القوات المصرية إلى سهل قرع الذى سيتخذ ميدانا للمعركة والذى يبعد عن القلعة بنحو ثلاثة أميال، شاهدت على المرتفعات المقابلة لهذا السهل كتلا بشرية كثيفة تبدوا كالنمل لكثرة عددها[٣]. وما أن رأت القوات المصرية تتحرك إلا واندفعت

(١) المصدر السابق .

(2) Bulletin d'Iustitut Egyptien. Von Thurmeysen.

٣ ــ المصدر السابق .

نحوها كالسيل من فوق المرتفعات وانتشرت فى جنبـــات السهل للإحاطة بها . وعندئذ بدأ إطلاق النار على طول خط القتال وأخذت المدفعية المصرية تلعب دورا هاما فى حصد تلك الجموع وفى تشتيت شملها . ويصف لنا تورنبزن المعركة بقوله « لقد بدأ إطلاق النار على طول خط القتال واشتبكت البطارية وأورطة المشاة الموجودة بالجناح الأيمن مع قوات العدو فى قتـال عنيف . فأرسلنى رئيس هيئة أركان حرب لاستحضار نجدة من الجـناح الأيسر . فعدت ثانية وأنا مؤمن بالنصر ... وكانت دهشتى شديدة عندما ماشاهدت فصائل كثيرة من قلب الجيش المصرى قد توقفت عن إطلاق النار دون صدور أمر اليهـــا بذلك . واتجهت تلك الفصائل نحو اليسار حاملة بنادقها على اكتافها ، وغادرت ميدان القتال بهدوء، ناكسة على أعقابها ومتجهة صوب القلعة التى غادرناها منذ وقت قصير (١) » .

وقد انتقلت عدوى الانسحاب من أورطة الى أخرى ، ولم يستطع الضباط السيطرة على الموقف أو الحيلولة بين الجنود وبين تركهم ميدان القتال . ويرجع السبب فى هذه الحركة الى الخوف والذعر اللذين سيطرا على الجنود نتيجة لانسحاب القائد العـــام راتب بصحبة الأمير حسن خوفا على حياته بعد أن اشتد القتال . وكان من المرجح أن تنتصر القوات المصرية فى المعركة إذا ما واصلت القتال . ولكن هذه الحركة أتاحت للأحباش فرصة

(١) المصدر السابق .

الالتفاف حول الجناح الأيمن للجيش المصرى والفصل بين القوات المصرية المحاربة وحامية قياخور .

وعندما اشتدت حركة الانسحاب واتخذت مظهر الهزيمة والفرار إندفع جنود الأحباش من فوق المرتفعات كالصخور الهاوية ، والتحموا مع القوات المصرية بالسلاح الأبيض حتى أفنوهم عن آخرهم ، إلا من استطاع الهرب أو الالتجاء إلى القلعة .

كانت خسارة المصريين فى تلك المعركة سبع أورط بأكملها وكذلك كل مدافع الميدان ، « أما عن الخسائر التى منى بها العدو فى هذا اليوم فهى نحو ٣٥ الف نفر تقريبا بين قتيل وجريح على أقل تقدير . كما أن ثمانية من وزرائه ذوى الشهرة الكبيرة قتلوا فى هذه الواقعة[١] . »

ويبدو أن خسائر الأحباش كانت كبيرة ولكن بولغ فيها إلى حد كبير لسببين : —

أولا : أن من غير الميسور معرفة عدد قتلى الأحباش بالدقة نظرا لحرصهم على أخذ موتاهم قبل انسحابهم من ميدان المعركة .

ثانيا : أن الخديو اسماعيل قد طلب[٢] من قائد الحملة المبالغة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنه ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاون عن الحرب الحبشيه الثانيه) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين صادر تلغرافات شفرة عربى . وثيقه رقم ٥٣٨ ص ٩٩ — فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ .

فى تقاريره التى يبعث بها الى مصر عن خسائر الجيش الحبشى كما حثّه أيضا على إعلان تلك الخسائر أمام الأجانب ليتفق ذلك مع ما ذكرته[١] الصحف المصرية عن خسائر العدو الفادحة التى منى بها ذرا للرماد ، وحتى لايؤدى فشل الحملة المصرية فى تحقيق أغراضها الى تذمر فى صفوف المصريين ، وإلى إضعاف مركز الخديو اسماعيل أمام الدول الأوربية .

ويذكر احمد عرابى بك بأن ضباط هيئة أركان الحرب الأوربيين قد خلعوا طرابيشهم أثناء المعركة ولبسوا القبعات ، وربطوا أعناقهم بمناديل بيضاء « دلالة على أنهم مسيحيين فيأمنون على أنفسهم عند اشتباك الجيشين على حسب الإتفاق مع القسيس السابق ذكره (الأب دفلو[٢]) .

وهذا يدل ـ سواء صح هذا القول أوجانبه الصواب ـ على مدى الشك والريبة التى يكنها الضباط المصريون والأتراك لهؤلاء الضباط الأجانب . ومما يؤخذ على عثمان رفقى قائد حامية قياخور أنه لم يهب إلى نجدة زملائه اثناء المعركة وقد كانوا على مقربة منه . ويذكر احمد عرابى هذا الحادث بقوله ، « إنه لمما يحمر له الوجه خجلا مرور الجيش الحبشى من أمام فرقة قياخور أثناء هجومه على

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٨ عابدين (صادر تلغرافات) شفرة تركى . وثيقة رقم ١٣ ص ٥٠٥ ملحق ٢ فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ .

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٦ .

منطقة تصل اليها مقذوفات المدافع وتنكى بالعدو نكاية عظيمة، وتمنعه عن التقدم، ولم تطلق عليه مقذوفة واحدة ولم تخرج البيادة الى الميدان لتساعد اخوانهم وتنقذهم من الفناء المحدق بهم . »[١]

وفى الحقيقـة كان فى إمكان تلك الحامية أن تؤدى خدمة هامة لجنود المعركة، فكان فى استطاعتها الهجوم فى الوقت المناسب ومفاجأة العدو والانقضاض على ميسرته وتبديد شملها؛ وحصر الأحباش بين (فكى كماشة) والقضاء عليهم . ولكن يبدو أن عثمان رفقى قائد حامية قياخور قد هاله كـثرة عدد الأحباش، فجبن ورضى بالبقاء داخل استحكاماته تاركا زملاءه يلقون حتفهم مؤثراً السلامة على خوض معركة غير مأمونة النتائج .

وبانضمام الجنود الفارين من ميدان القتال الى الأورطتين السابق تركها فى القلعة أصبح مجموع مابداخل القلعة من جنود يزيد قليلا عن ألفى جندى . وفى مساء ليلة ٧/٨ مارس حضر الى القلعة عدد من الجرحى يتراوح بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ فى حالة يرثى لها . جميعهم - بلا استثناء - قد جردوا من ملابسهم وشوهوا تشويها كبيراً .

ونظرا لكثرة عدد الجنود الجرحى فقد تكدس بعضهم فوق بعض ومات عدد كبير منهم لقلة العناية بهم، ولعدم توافر الأطباء اللازمين، اذ لم ينج منهم بعد المعركة غير ثلاثة أطباء فقط[٢] . كما

---

(١) المصدر السابق .

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

لم يستطع الجنود فى تلك الليلة الخروج لجلب الميـاه من الخور القريب منهم . وانقضت تلك الليلة فى فزع ورعب شديدين ، وظل الجنود المصريون يطلقون نيران أسلحتهم بلاهدف معين . وفى اليوم الثانى (٨ مارس) أخذت قوات القلعة تدفع هجمات متتالية عليها .

وفى يوم ٩ مارس حاول الأحباش أن يعيدوا الكرة وأن يقوموا بمحاولتهم الأخيرة لانتزاع القلعة والقضاء على ماتبقى من الحامية المصرية ، فبدأوا يتجمعون على المرتفعات المحيطة بسهل قرع وبدأوا ينصبون المدافع فى مواجهة القلعة . ثم قاموا بهجوم منظم عليها ، وحشدوا لذلك اعدادا هائلة . ولكن لحسن خط المصريين لم يكن الأحباش يعرفون استخدام المدافع ، ولذا لم تستطع قذائفهم أن تنال من القلعة . وفى ذلك الوقت قامت المدفعية المصرية الثقيلة بإسكات المدفعية الحبشية والقضاء عليها ، مما أهاج الأحباش ودفعهم الى الهجوم بتهور منقطع النظير فى كتل بشرية ضخمة حتى وصلوا الى مسافة عشرة امتار من القلعة . ونظرا للخسائر الفادحة التى منوا بها فقد انسحبوا فى حوالى الخامسة بعد ظهر ذلك اليـــوم .

وفى حقيقة الأمر ، فقد أبلى جنود الأورطتين من المشاة الذين لم يشتركوا فى موقعة أول أمس وبقوا فى الطابية، بلاءً حسناً وأثبتوا اخلاصهم لدرجة تفوق الوصف ، فبذلوا مهجهم ولم يخشوا بأسا

من الرصاص الذى كان يمطره العدو . وقد بلغت خسائرنا فى معركة اليوم من القتلى ، معاون بيادة واحد وثلاثة من الضباط و١٢ جنديا ، وليس لدينا خسائر أخرى . » [١]

ويذكر احمد عرابى بأن الأحباش كانوا يستخدمون المصريين الأسرى فى اطلاق المدافع التى اغتنموها من الجيش المصرى على اخوانهم بالقلعة ، ويقول بأن الأحباش قد هجموا فى ذلك اليوم على القلعة هجوما شديدا ، وتسلقوا على جدرانها بشجاعة عظيمة يدوسون قتلاهم وجرحاهم لايبالون الموت ولا يظهرون عجزا ، الا أن عساكر الاورطة المستجدة وضباطهم وراتب باشا ومن معه من المعاونين أبلوا بلاء حسنا وردوا الأحباش على أعقابهم خاسئين مدحورين . [٢] »

واذا ماقارنا بين نتيجة هذه المعركة ومعركة أول أمس ، نجد أن الجيش المصرى قد استطاع أن يعوض الخسائر التى منى بها فى الموقعة الأولى وأن يكبد الأحباش خسائر جسيمة . ويرجع الفضل فى ذلك الى اعتصام القوات المصرية باستحكاماتها وعدم التعرض للأحباش وجها لوجه . وهذا يدل على صواب الرأى الذى نادى به راتب باشا من قبل وعارضه لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة .

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (دفتر شامل لحرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى المعاون) .

(٢) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار « مخطوط » ص ٢٠ .

وعندما أيقن الملك يوحنا ـ بعد الخسائر التى لحقت به فى المعركة الأخيرة ـ ألا قبل له على مقاومة القوات المصرية أو القضاء عليها ، وخصوصا بعد أن وصلت إلى قرع ثلاث أورط مصرية جديدة لتعزيز حاميتها[١] . وسنتناول فى الفصل التـالى تفاصيل تلك المفاوضات وماأسفرت عنه من نتائج .

انتهت تلك الحرب الفاشلة بعد أن كلفت مصر خسائر كبيرة قدرها تورنيزن بما يقرب من ١٤ الف مقاتل بين قتيل وجريح بما فى ذلك من لقوا حتفهم بعد عودتهم الى مصر نتيجة ما ألم بهم من تعب ، وما حملوه معهم من جراثيم الأمراض من الفتاكة.

أما عن دواب الحمل فقد نفق منها ما لا يقل عن اثنتى عشرة الف دابة حسب تقرير نظارة الجهادية[٢]. ويذكر دى فرنسشينى Du Franceschini قنصل النمسا الجنرال بمصر أن تلك الحملة قد كلفت الخزانة المصرية مالا يقل عن ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيها كنفقات للحرب وما لا يقل عن ١٥٠٫٠٠٠ جنيه للعتـاد الحربى والأسلحة الحربية . [٣]

(1) Amer. Doc. vol. 12 Despt. No. 9 E. Farman to Hamelton Fish Cairo Juin 1st 1876.

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

(3) Alex.-Caire 1876, Fasc. XXXVIII/176 Rapport du Consul du Franceschini au Ministère de l'Exterieure Z. 25/pol. Alex. le 9 Juillet 1876.

أسباب فشل الحملة :

يرجع فشل الحملة فى تحقيق أغراضها إلى أسـباب متعددة ، فبالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل يمكننا أن نرجع السبب الرئيسى فى اخفاقها الى عدم وجود قيادة موحدة للحملة من الناحية العملية ، (٧) ففى حقيقة الأمر كان للحملة قيادتان متنافرتان : الأولى يمثلها القائد العام راتب باشا ، والثانية يمثلها لورنج رئيس هيئة أركان الحرب ، ومن سوء حظ مصر أن كلا من الرجلين يختلف عن الآخر فى أكثر من ناحية . ولم تكن المجالس الحربية التى تعقد لوضع الخطط العسكرية وتفصيلات الهجوم على الحبشة ـ فى واقع الأمر ـ بذات سلطة حقيقية بجانب سلطة القائد العام للحملة . وما كانت تعقد إلا لإشراك ضباط الحملة فى المسئوليـة فقط دون أن تكون قراراتهم ملزمة للقائد العام . فالتعاون المفقود بين القيادة وهيئة أركان الحرب كان من أهم النكبات التى منيت بها الحملة .

ومن الأسباب التى عملت على اضعاف الحملة أيضا وجود عدد كبير من الضباط من مختلف الجنسـيات . فالضباط الأتراك والجراكسه كانوا يحتلون المراكز الرئيسية فى الحملة بينما حرم منها الضباط المصريون الذين كانوا يشعرون بعدم المساواة بينهم وبين زملائهم الجراكسه . زد على ذلك الضباط الأجانب الذين كانوا يتقاسمون السلطة مع الضباط الجراكسه . ومن هنا نشأ حقدهم عليهم . ولما كان هؤلاء الضباط الأجانب من مختلف الجنسيات

فقد أدى هذا - بطبيعة الحال - إلى اختلافهم فى الثقافة وخصوصا الثقافة العسكرية ، وكذلك إلى اختلافهم فى الآراء والاتجاهات . ورغم أن معظم هؤلاء الضباط من الأمريكيين الذين دخلوا فى خدمة الحكومة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ، إلا أن هذه ليست ميزة بالنسبة للجيش المصرى ، بل على العكس من ذلك ، فقد كانوا من أسباب ضعفه فالحرب الأمريكية التى قسمت الشعب الأمريكى إلى فريقين متناحرين : أنصار الشمال وأنصار الجنوب ، وانتهاء تلك الحرب بانتصار الشماليين على الجنوبيين قد ترك أثرا سيئا فى نفوس الفريقين المتحاربين وهذا الأثر قد ظهر واضحا فى عدم التعاون التام بين هؤلاء الضباط من شماليين وجنوبيين أثناء خدمتهم بمصر .

ومن العبقات التى واجهت الحملة أيضا ، والتى لها دور هام فى فشلها اجتماع هذا المتحف البشرى من الضباط الأجانب فى قيادة واحدة وللقيام بعمل واحد مع اختلاف اللغات التى يتكلم بها كل فريق منهم . فبعضهم لا يعرف سوى العربية والبعض الآخر لا يتكلم إلا التركية فحسب . وقليل منهم من يعرف الانجليزية أو الفرنسية إلى جانب لغته التى يتحدث بها . ومن الأمثلة على ذلك أن قائد الحملة راتب باشا كان يعرف التركية ويجيد الفرنسية ولكنه لا يفهم شيئا من اللغة الانجليزية . بينما كان رئيس هيئة أركان حرب الحملة وهو أمريكى الأصل لا يجيد سوى الانجليزية

ولا يعرف من اللغة الفرنسية إلا النذر اليسير . فكان التفاهم بينهما وخصوصا فى المسائل العسكرية التى تتطلب السرية التامة يكاد يكون مستحيلا . وكذلك الشأن بالنسبة لبقية ضباط أركان الحرب الأجانب مع الضباط الأتراك . فتعدد اللغات فى الحملة كان من النكبات التى منيت بها .

كذلك نجد أن الخديو إسماعيل إهتم بحشد هذا العدد الضخم من الضباط المنتمين إلى هيئة أركان الحرب فى الحملة ، وذلك لإختيار نظام الهيئة الذى أدخل حديثا فى الجيش المصرى بصفة عملية ، فهذا النظام الذى أخذت به معظم الجيوش الأوروبية فى القرن التاسع عشر قد أخذ به أيضا فى الجيش المصرى فى أواخر حكم إسماعيل. فالحرب الحبشية من هذه الناحية كانت التجربة الأولى لاستخدام هيئة أركان الحرب ، ولكنها جاءت فى ظروف غير مواتية ، فاضطربت الأمور وتضاربت وجهات النظر .

ليس ببعيد أن يكون راتب باشا القائد العام للحملة والذى لا يؤمن بنظام هيئة أركان الحرب والذى يقدس النظام الحربى القديم الذى ينفرد فيه القائد العام بكل شىء ، قد عمل على معارضة آراء الضباط الأجانب بمختلف السبل لتفشل الحملة ، وليتمكن بذلك من تقديم البرهان العملى على عدم صلاحية هذا النظام للمسئولين فى القاهرة .

وهناك مسألة على جانب كبير من الدقة والحساسية ، وقد أشار

إليها أحمد عرابى وذكرناها فى غير هذا الموضع ، وهى الناحية الدينية التى كان لها اعتبار كبير وقتئذ . فمصر دولة مسلمة تحارب دولة مسيحية وتستخدم فى نفس الوقت ضباطا أجانب مسيحيين لحربها . فهذا الموقف قد وضع الضباط الأجانب موضع الشك من قبل ضباط الحملة من المسلمين . ومن هؤلاء من اتهمهم بالتواطؤ مع الأحباش سرا ضد الحملة . وعلى أى حال سواء صح هذا الاتهام أم جانبه الصواب فالمسئولية لا تقع على أكتاف هؤلاء الضباط الأجانب ، وإنما تقع أولا وقبل كل شىء على أكتاف إسماعيل فهو الذى سمح باستخدامهم فى هذه الحرب . وسنجد أن مجرد الشك فى تصرفات هؤلاء الضباط يضعف ثقة الجنود بضباطهم مما كان له أسوأ العواقب .

كما أن اعتماد مصر على الضباط الأجانب لم يؤد إلى تقويتها كما كان يظن بل على العكس من ذلك فقد عملوا على إضعافها ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وأدى هذا إلى اضمحلال النفوذ المصرى فى ممتلكاتها الأفريقية .

وفى حقيقة الأمر فان استخدام مصر للموظفين الأجانب على نطاق واسع فى عهد إسماعيل كان تجربة قاسية لم تجن مصر من ورائها سوى الكوارث التى حلت بها ، ثم وقوعها فى قبضة الاستعمار الانجليزى ، ثم ضياع كل الجهود التى بذلتها فى القارة الأفريقية فى نهاية الأمر .

وإذا انتقلنا إلى المحاربين المصريين فى هذه الحملة نجد أن معظمهم من المجندين الذين لم يألفوا الحرب ولم يتعودوا القتال ، بل زج بهم فى هذه الحرب بعد تدريب سريع تم فى فترة قصيرة من الزمن. هذا بالاضافة إلى عدم تماسك وحدات الجيش بعضها ببعض ، وتفرقها فى مناطق عديدة منعزلة لا تمكنها من الاتصال ببعضها وتكتلها فى الوقت المناسب . فمثلا نرى أن القوات المصرية كانت مبعثرة على طول الطريق إلى موقع قرع فى مواقع مكشوفة وبينها ثغرات ، أهمها الثغرة الموجودة عند أسمرة وجندا والتى لم يعمل راتب باشا على سدها مما جعل القوات المصرية فى فزع دائم من مباغتة الأحباش لها فى أية لحظة ، وترتب على ذلك تأخير تركيز القوات المصرية فى المواقع الأمامية فى الوقت الملائم .

هذا بالاضافة إلى أن موقع قرع لم يكن مناسبا من الناحية الاستراتيجية ، وكان الأصلح أن تنشأ تلك القلعة فى مكان آخر يسيطر على طرق المواصلات الرئيسية ، ويشرف على وجه الخصوص - على طريقى أراتو وأمهور اللذين سلكهما الأحباش أثناء تقدمهم .[1]

كما أن الاقتصار على مد الخط التلغرافى - لعدم كفاية المهمات اللازمة لذلك - الى موقع بعرزة فقط دون تكملته الى موقع قياخور

(1) Dye : Moslem Egypt P. 409.

أو قرع أثره فى تأخير وصول الإشارات التلغرافية ، وبالتـالى سبب فى عرقلة ورود الإمدادات الحربية فى الوقت المناسب .

ومن الأخطاء الحربية الخطيرة التى كان لها أكبر الأثر فى هزيمة القوات المصرية فى المعركة التى دارت يوم ٧ مارس تقاعس عثمان رفقى عن نجدة حامية قرع فى الوقت المناسب ، مع العلم بأن القوات الحبشية المهاجمة كانت على مرمى مدافعه . ولو قام عثمان رفقى بواجبه لمـالت كفة الحرب فى صالح المصريين ولوقعت القوات الحبشية بين شقى الرحى ، ولـكنه آثر السلامة والاعتصام داخل استحكاماته فسبب بذلك فى حدوث تلك المذبحة التى ذهب ضحيتها الآلاف من المصريين الأبرياء .

وهناك سبب آخر لفشل الحملة على جانب كبير من الأهمية ألا وهو انسحاب راتب باشا بالقوات المحيطة به ـ بعد أن حمى وطيس الحرب ـ خوفا على حياة الأمير حسن بن اسماعيل المرافق له . فهذا الانسحاب المفاجىء من قلب المعركة قد فت فى عضد الجنود ، وجعلهم وهم فى حومة الوغى يتساءلون عن السر فى هذا الانقلاب فى الخطة العسكرية دون سابق انذار ولـكنهم لايجدون جوابا . ثم تنتقل عدوى الانسحاب من كتيبة الى أخرى كما سبق أن أوضحنا . وفى حقيقة الأمر لم يكن راتب باشا يفـكر فى سلامة الجنود بقدر ماكان يهمه المحافظة على حياة الأمير حسن . بل ان راتب باشا كان يرى أن اندحار القوات المصرية وتدميرها عن آخرها أهون

ضررا وأخف وطأة من موت الأمير حسن أو تعرضه للأسر ، وما قد يترتب عليه من غضب الخديو . ولهذا يمكننا القول بأن إلحاق الأمير حسن بالحملة كان من أهم أسباب ضعفها فى البداية ، وعاملا هاما من عوامل فشلها فى نهاية الأمر .

وأخيراً وليس آخراً ، فان راتب باشا رغم علمه مقدما أن الموقعة ستحدث يوم الثلاثاء ٧ مارس نظرا لتفاؤل يوحنا بالحرب فى هـــذا اليوم من الأسبوع ، فإنه لم يحاول القيـــام بأية محاولة لضم قوة قرع إلى حامية قياخور . وذلك للوقوف صفا واحداً لملاقاة الأحباش قبل الموعد المحدد . ويعلل راتب باشا هذا التصرف بأنه جاء نتيجة اعتقاده بأن يوحنا سيهاجم قلعة قرع ولن يتعرض لحامية قياخور . وهذا يدلنا على مدى تقصير القائد العام وسوء تقديره . فمن المعروف والمسلم به أن القائد العسكرى لا يبنى خطته العسكرية على احتمال واحد دون أن يعمل حسابا لسائر الاحتمالات الأخرى ، حتى لا يفاجأ إذا ما تغيرت خطة العدو .

الفصل العاشر

نتائج الحملة

ترتب على فشل الحملة فى تحقيق أهدافها نتائج خطيرة فيما يختص بمصر . أولى تلك النتائج ان تلك الحملة قد ألقت عبئا ماليا جديدا على كاهل الميزانية المصرية ، فى وقت لم تكن حالة البلاد الاقتصادية أو المالية تسمح بمثل هذا الاسراف الذى أدى اليه تهور الضباط الأجانب الذين وكل اليهم اسماعيل رعاية مصالح مصـــــر على حدودها الجنوبـــــية .

فهذه التبعات الحربية قد أسهمت الى حد بعيد فى إقدام الخديو اسماعيل على أخطر عمل تعرضت له مصر ألا وهو بيع حصة مصر من أسهم قناة السويس الى الحكومة الانجليزية بثمن بخس ، وذلك فى عام ١٨٧٥ . ففتح بذلك باب التدخل المشروع أمام انجلترا فى شئون مصر الداخلية والخارجية على السواء . فشراء الحكومة الانجليزية لأسهم مصر فى القناة قد منحها حجة قوية تستطيع التذرع بها ، للتدخل فى شئون مصر تحت ستار المحافظة على مصالحها المشروعة فى هذا الممر الحيوى .

وبذلك أصبح لإنجلترا منـــذ ذلك الوقت شبه وصاية على شئون البلاد . وساعدها على ذلك أيضا ارتباك مصر المالى وضعف

مركز الخديو اسماعيل أمام الدائنين ومحاولته الاستنجاد بمشورة انجلترا وخبرتها لاخراجه من المأزق الذى تردى فيه . وهذا الموقف الضعيف من جانب اسماعيل هو الذى شجعها على التدخل لوضع حد للتوسع المصرى على سواحل البحر الأحمر والصومال.

وعرفنا كيف وقفت الحكومة الانجليزية أمام تقدم حملة ما كيلوب من الساحل الشرقى لافريقيا الى منطقة البحيرات لايجاد طريق مأمون للمواصلات بين هذه المنطقة والساحل ، وكيف نجحت الحكومة الانجليزية فى الضغط على الخديو اسماعيل لسحب الحملة والخضوع لأوامرها .

ولم تكتف انجلترا بما أحرزته من نجاح فى القضاء على الحملة ، بل لقد صممت على وضع حد للتوسع المصرى على الساحل الافريقى الشرقى بصفة نهائية ، فأرغمت الخديو اسماعل على توقيع معاهدة الغاء تجارة الرقيق فى مصر والسودان فى ٤ أغسطس سنه ١٨٧٧ . وعززت تلك الاتفاقية بانشاء خدمة بوليسية فى سبتمبر من نفس السنة لمراقبة السفن التى تمخر عبـــاب البحر الأحمر والتـــابعة للحكومة المصرية أو الافراد المصريين ، وتفتيشها . ووضع هذا الجهاز البوليسى تحت إشراف الضابط الانجليزى ملكولم .

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وقعت الحكومـــة الانجليزية مع الخديو إسماعيل معاهدة ثانية اعترفت فيها بسيادة مصر على الساحل الصومالى حتى رأس حافون . وإذا نظرنا إلى نصوص تلك المعاهدة نجد :

أولا : أن الدافع الأساسى لعقدها هو المحافظة على المصالح الانجليزية فى تلك المناطق بشكل يضمن تفوق النفوذ الانجليزى فى البحر الأحمر وسواحل الصومال . واهتمام إنجلترا بالبحر الأحمر بدأ يظهر بشكل واضح عندما تمكن محمد على من بسط نفوذه على شبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر فى العشرينات من القرن التاسع عشر . ولما كان البحر الأحمر له أهمية خاصة بالنسبة لانجلترا باعتباره أقصر الطرق المؤدية إلى امبراطوريتها فى الهند وجنوب شرق آسيا ، بدأت تنظر بعين القلق إلى تقـــدم النفوذ المصرى فى هذه المناطق الساحلية ، ورأت من الضرورى تدعيم نفوذها فى تلك المناطق لدفع خطر النفوذ المصرى . ولهذا تقوم فى عام ١٨٣٨ بالاستيلاء على عدن المشرفة على مدخل البحر الأحمر من الجنوب ، وكذلك تضع يدها على جزيرة موسى القريبة منها والتابعة للسلطان محمد والى تاجورة فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ . وفى سبتمبر من نفس السنة أخذت جزيرة أرباط من حاكم زيلع .

وقد دفع هذا التدخل من قبل إنجلترا — كما سبق أن أوضحنا — الحكومة الفرنسية على أن تحذو حذوها ، فتقدم فى عام ١٨٦٢ على شراء أبوك من شيخ رهيطة التابع للسيادة العثمانية . وكذلك فعل الايطاليون بعصب فى عام ١٨٧٠ . فانجلترا قد وجدت نفسها إذن فى منافسة إستعمارية مع كل من فرنسا وإيطاليا فى تلك المنطقة ، وأن من مصلحتها فى هذه الحالة الاعتراف بالسيادة المصرية فى ظل

التبعية العثمانية ، فى نظير الحصول على إمتيازات واسعة تحقق لها ما تبغيه من سيطرة ونفوذ ، ولتبعد بذلك النفوذين الفرنسى والأيطالى عن تلك المناطق . فضعف مصر الحربى الذى ظهر فى الحرب الحبشية قد شجع هذه الدول على التطلع إلى الممتلكات المصرية .

ثانيا : أن الحكومة الانجليزية أرادت بعقدها تلك المعاهدة مع الحكومة المصرية أن تصيب هدفين بحجر واحد ، فى الوقت الذى تعترف فيه بسيادة مصر على ساحل الصومال حتى رأس حافون ، إنما تحدد بذلك مدى إمتداد النفوذ المصرى فى تلك المناطق ، بحيث لن تستطيع مصر بعد إبرام تلك الاتفاقية أن تبسط نفوذها إلى ابعد من هذا الحد المنصوص عليه . فالاتفاقية إذن تسلب بالشمال ما أعطته باليمين . بل أنها فى واقع الأمر قد حرمت مصر من مد حدود ممتلكاتها على كل الساحل الصومالى حتى ميناء قسمايو جنوب مصب نهر جوبا .

ثالثا : رأت الحكومة الانجليزية أن الاحتفاظ لمصر بسيادتها على تلك المناطق ، إنما يعتبر بمثابة إبعاد هـذه البلاد عن أطماع الدولتين الفرنسية والإيطالية ، وصيانة لها ريثما تتهيأ الفرص لانجلترا لاحتلال مصر وملحقاتها فى السودان . فالاعتراف بحقوق السيادة المصرية على تلك البقاع يعتبر تمهيدا لبسط إنجلترا سيطرتها عليها عندما يتم لها الاستيلاء على مصر فى السنوات القليلة القادمة .

وخصوصا وأن إنجلترا قد بدأت فعلا التفكير فى إحتلال مصر بعد أن تخلت عن سياستها التقليدية فى المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، بعد شرائها لأسهم مصر فى شركة قناة السويس . وبعد ماوجدت ما عليه مصر من ضعف حربى .

رابعا : وتوكيدا لنوايا إنجلترا الاستعمارية إزاء مصر أنها قد اشترطت فى تلك المعاهدة أن يتعهد الخديو إسماعيل عن نفسه وعن خلفائه من بعده بعدم منح أية دولة من الدول أية مساحة من الأرض الداخلة فى حوزتها . كما اشترطت أيضا بأن اعترافها بسيادة مصرحتى رأس حافون مرهون بتعهد السلطان العثمانى أيضا بعدم منحه أية قطعة من أرض مصر أو من ملحقاتها لأية دولة أجنبية . وقد أرادت إنجلترا بحرصها على إبعاد أى نفوذ أجنبي عن مصر - فيما عدا نفوذها بطبيعة الحال - أن تمهد السبيل للاستيلاء عليها وحدها دون أن يكون لها شريك فيها ، ودون أن يتعارض نفوذها مع نفوذ أية دولة أخرى .

خامسا : إن المعاهدة قد منحت الحكومة الانجليزية إمتيازات واسعة ، فجعلت لها مركزاً ممتازا فى مصر وفى ممتلكاتها على ساحل البحر الأحمر والساحل الصومالى ، ومنحتها حق تعيين مأمورى قنصليات فى جميع سواحل الصومال ، وأن يكون لهم مركز ممتاز فى تلك الجهات . وكذلك أرغمت الخديو إسماعيل على منع تجارة

الرقيق من مصر وملحقاتها فى السودان وأن تقوم السفن الانجليزية بمعاونة الحكومة المصرية فى هذا الشأن ، وأن يكون لها صفة الضبط حتى على السفن التجارية المصرية .

هذا بالاضافة إلى تحديد الرسوم الجمركية على السلع الواردة إلى موانئ زيلع وتاجورة وسائر موانىء البحر الأحمر ، فيما عدا بلهار وبربرة اللتين أصبحتا من الموانىء الحرة .

سادسا : أن هذه المعاهدة رغم اعترافها بالسيادة المصرية على الساحل الصومالى حتى رأس حافون ، كانت مجحفة بحق مصر ، فهى من الناحية العملية لم تمنح مصر شيئا أكثر مما كان فى حوزتها ، فهذا الساحل الصومالى كان فى قبضة مصر من الناحية العملية ، ولم يزد إعتراف إنجلترا بالسيادة المصرية على التسليم بأمر واقع ملموس ، بل إن إنجلترا رفضت بشدة أن تعترف بحق مصر فى السيادة على أراضيها كاملة حتى مصب نهر جوبا ، وذلك لوجود أطماع لها فى تلك المنطقة .

وزيادة على ذلك فإن تحديد الرسوم الجمركية الضئيلة على البضائع الواردة إلى تلك المناطق واعفاء الامدادات، إلى مينائى بلهار وبربرة كلية من الرسوم الجمركية قد أضر بمصر أبلغ الضرر ، وذلك باعتراف الجنرال غوردون نفسه ، فخسرت الحكومة المصرية الرسوم التى كانت تؤخذ على ما كان يصدر من هذين الميناءين من أغنام وأبقار يقدر عددها سنويا بما يزيد عن ٧٠ الف

رأس . بالإضافة الى ماتدفعه من جزية سنوية للباب العـالى فى نظير احتفاظها بهذين الميناءين ، وما أنفقته فعلا فى انشاء منـارة وحوض للسفن وبعض المنشآت العامة .

سابعا : أن ازدياد نفوذ انجلترا فى ممتلكات مصـــر المجاورة للحبشة قد شجع الأحباش على عدم تسوية مشكلة الحـدود بينهم وبين مصر ، بحيث ظلت هذه المسألة مثار مفاوضات بين الطرفين فترة طويلة من الزمن ، الى أن احتلت انجلترا مصر ، فأمكنها بذلك من أن تسوى مشكلة الحدود بين البلدين فى صالح الحبشة .

جذور الثورة العرابية

لم تكن الثورة العرابية وليدة عصر توفيق فحسب ، بل ان جذورها تمتـد فى الماضى الى العهود التى سبقته . فهى ثمرة أخطاء ورواسب القرن التاسع عشر بأكمله . ولكل ثورة أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة . فمن الأسباب غير المباشرة فشل الحمـــلة الحبشية ، وماصحب ذلك من الشعور بالمرارة ومن ازدياد موجة السخط التى عمت المصريين على إثر مشاهدتهم لتلك المهزلة التى مثلها اسماعيل وكبار قواد جيشه من الأتراك والجراكسة . فبدلا من أن يحاكم هؤلاء القادة عن أخطائهم وعن تهاونهم ، استقبلهم الخديو اسماعيل استقبال الأبطال الفاتحين ، وأنعم عليهم بالرتب والأوسمة والنياشين . بل لقدذهب فى هذه المهزلة الى أبعد الحدود فكافأ عثمان رفقى (الذى سيصبح ناظرا للجهادية بعد ذلك) على

تخاذله وخيانته التى سببت كارثة قرع بأن رقاه الى درجة أعلى . وبهذه المناسبة يذكر الأميرالاى داى (مساعد رئيس هيئة اركان حرب الحملة) بأن ما ارتكبه عثمان رفقى فى يوم ٧ مارس لكاف لتقديمه الى المحاكمة واعدامه رميـــا بالرصاص ، لوحدث هـذا فى أية دولة متحضرة . (١)

وإذا أمعنا النظر فى هذا التصرف الذي أقدم عليه اسماعيل ، نجد أن الدافع اليه أحد أمرين أو كلاهما معا الأول : أن الخديو اسماعيل رغم ادراكه للأخطاء التى ارتكبها ضباطه من الأتراك والچراكسة، فقد خشى من محاكمتهم إتقاء حدوث ثورة ضده قد تعصف به وبحكمه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو يعـــلم أكثر غيره مدى حاجته الى حمايتهم من غضب المصريين وسخطهم .

والدافع الثانى ، أن إسماعيل كان متعصبا لتركيته . ولهذا آثر طبقة الأتراك والچراكسة بالوظائف الرئيسية فى مصر ، سواء كانت مدنية أم عسكرية . فليس من المعقول إذن والحالة هذه أن يتهم هؤلاء بالخطأ والتقصير فيقوِّى ـ بطريق غير مباشر ـ فريق الضباط الوطنيين الساخطين والمتطلعين إلى المساواة فى المعاملة بزملائهم السابقين فمن الخير لاسماعيل أن يتستر على أخطاء قواده إرضاء لتعصبه من ناحية ، وحتى لايخرج الأمر من يده من ناحية أخرى، وخصوصا وأن العنصر الچركسى كان يمثل جبهة متحدة لها قوتها

(1) Dey ; Moslem Egypt. P. 166 & 167.

ونفوذها ، وليس من السهولة بمكان القضاء عليها أو النيل منها .

فهذه المسرحية الهزلية التى مثلت أمام سمع المصريين وبصرهم قد أثارت فيهم الحقد ضد العنصر الجركسى وضد تسلطه وغطرسته. فالفلاحون قد وجدوا أن أبناءهم الذين حشدوا فى هذه الحرب ، قد ذهبوا ضحية جبن وخيانة بعض هؤلاء القادة الجراكسة . ومما زاد فى حنقهم أن هؤلاء الخونة قد نالوا ثمرة خيانتهم أوسمة وترقيات . وهذا الشعور بالمرارة والحقد ضد العنصر الجركسى قد وجد صداه لدى الزعيم الوطنى أحمد عرابى وزملائه ممن اشتركوا فى تلك الحرب ولمسوا أخطاءها . وقد نوّه عنه فى أكثر من موضع فى كتابه (كشف الستار عن الأسرار) . وبمرور الأيام ، وتكاثر الأخطاء أخذ هذا الرصيد من المرارة ، والحقد يزداد فى نفوس المصريين قوة وعنفا إلى أن ظهر فى صورة ثورة عارمة ، ألا وهى الثورة العرابية .

ومما ساعد على بلوغ هذه الغاية فى هذه الفترة القصيرة نجاح طبقة الجراكسة — وهى التى أطلق عليها الأميرالاى داى فى كتابه اسم obstructionists أى الرجعيين أو المعارضين لحركة التقدم — فى أن تدفع بعثمان رفقى إلى منصب ناظر الجهادية. فبين عشية وضحاها وجد الضباط المصريون أنفسهم تحت رحمة (وزير) رجل قد أثبتت الأيام فشله وتخاذله، ولكنه وضع على رأس الجهاز الحربى للبلاد وأعطى من الصلاحيات الواسعة ما يمكنه من التنكيل بمعارضيه من الضباط الوطنيين من أمثال أحمد عرابى وزملائه .

فلا عجب اذا مافقد هذا الرجل احترام الضباط المصريين له ، وسخر بتهم منه ، فإضطر الى التستر خلف ستار زائف من التعسف والبطش ، فادى هذا الى زيادة ثورة الضباط الوطنين اشتعالا ، والى تطور الثورة العرابية على النحو الذى اتخذته .

فالحرب الحبشية اذن كانت سببا فى كشف جهل العنصر الجركسى، وفى اثبات ضعفه وتخاذله الى الحد الذى أفقده ما كان له من مكانة أيام محمد على وخلفه عباس . فشجع هذا على قيام الثورة .

ما أشبه الليلة بالبارحة

اذا ما نظرنا الى الحرب الحبشية من حيث الظروف التى أدت الى قيامها وتطورها والنتائج التى ترتبت عليها بصفة عامة، نجد أن هناك تشابها كبيرا بينها وبين حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ . فكلا الحربين قد أدت الى قيام ثورة ، فالأولى كانت السبب فى قيام الثورة العرابية ، والحرب الثانية كان من نتائجها قيام ثورتنا المجيدة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . كما أن كلا الثورتين قد نشأت بعد فشل حربى لعبت فيه الخيانة والإرتجال دورا هاما .

كذلك نجد أن كلا الحربين كان من صنع الأسرة الحاكمة السابقة وبتشجيع من رجال الحاشية ورجال الحكومة دون تروى .

ومن أوجه التشابه أيضا إشتراك زعيمى الثورتين فيهما .

ففي الحرب الأولى اشترك البطل احمد عرابى وبعض زملائه الأحرار من أمثال على الروبى وغيرهم وشاهدوا بأنفسهم ماأرتكب فيها من أخطاء وخيانات . وفى الثانية أسهم الزعيم البطل جمال عبد الناصر وزملاؤه بنصيب كبير وكانت تلك الحرب بالنسبة للزعيم البطل جمال تجربة قاسية ، وامتحانا عسيرا ، عرف فيه الكثير من الحقائق التى خفيت على معظم المصريين ، كما رسم فيه أيضا معالم الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه . وكما دوّن احمد عرابى فى مرارة آراءه عن الحرب الحبشية فى كتاب (كشف الستار عن سر الأسرار) ، كتب أيضا الزعيم جمال عبد الناصر ذكرياته عن الحرب الفلسطينية فى كتاب (فلسفة الثورة) .

كذلك نجد أن فشل الحملة الحبشية قد دفع أحمد عرابى وزملاءه إلى أن يكونوا دعاة ثورة لبث روح التـــذمر فى نفوس الجنود والضباط ضد الأوضاع الخاطئة التى يعيشون فى ظلها . وقد نجحوا فى ذلك وقامت الثوره .

فاذا ما انتقلنا إلى حرب فلسطين نجد نفس الشيء ، ففشل هذه الحرب قد جعل من جمـــال عبد الناصر وزملائه رسل ثورة ، ولكنها ثورة بناء لا ثورة تقوم على الهدم . فتكونت جمعيات الضباط الأحرار ، ونجحت فى القيام بثورتنا المجيدة وفى تحقيق الرسالة التى عجزت عن تحقيقها الثورة الأولى .

وأخيرا وليس آخر فهناك شبه آخر بين هاتين الحربين ، وهو أن الجهود التي بذلت عقب فشلها لإخفاء الحقيقة المرة عن الشعب ، والحيلولة بينه وبين معرفة حقائق الأمور قد أخفقت تماما . وكان أثر أخفائها عن الشعب أشد عليه وقعاً مالو أذيعت عليه فى حينها . وترتب على هذا حدوث رد فعل قوى لديه عجل بقيام الثورتين .

وإذا نظرنا إلى نتائج الحملة فيما يختص بالحبشة نجد العكس ، فبالرغم من أن الحملة قد زعزعت مركز إسماعيل وجعلته فى موقف حرج فى الداخل والخارج ، فإنها قد قوّت من مركز يوحنا إلى حد بعيد ؛ فنجاحه فى صد الهجوم المصرى وإيقافه قد رفع من شأنه لدى الشعب الحبشى من ناحية ، وقضى على المعارضة الداخلية من ناحية أخرى . فأصبح فى نظر الشعب الأثيوبى المنقذ له من الغزو المصرى فرد بذلك للشعب ثقته بنفسه . تلك الثقة التى فقدها بإنهزامه أمام الحملة الانجليزية فى عام ١٨٦٨ .

زد على ذلك أن بانتهاء تلك الحرب أصبحت مصر تواجه قوة متحدة على حدودها الجنوبية الشرقية ، فاذا كانت مصر قد عجزت عن صد هجمات الأحباش المستمرة على حدود السودان فى وقت لم تكن كلمة الأحباش مجمعة على الملك يوحنا ، فإن الأمر سيصبح على جانب كبير من الصعوبة بعد تفوق سلطة يوحنا وبسط نفوذه على كل أجزاء بلاده .

كما أن ظهور ضعف مصر الحربى بعد موقعة قرع قد أفقدها

ولاء بعض الرؤوس والحكام الأحباش الذين انضموا إلى جانبها بغية تحقيق بعض المطامع الشخصية أو للانتقام من يوحنا . فبعد أن اتضح لهم الموقف خرج هؤلاء عن طاعة الحكومة المصرية وتنكروا لها ، وقدموا فروض الطاعة والولاء للملك يوحنا . ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا فى مهاجمة مصر ومحاولة النيل منها .

أما عن صدى تلك الهزيمة فى السودان فكان أشد أثرا وأعمق جذورا، فميدان القتال لم يكن بعيدا عن حدود السودان، خصوصا وأن القوات المصرية بالسودان لم تكن على درجة من الكفاية العددية نظرا لاتساع رقعة الأراضى السودانية التى دخلت تحت الحكم المصرى نتيجة لسياسة التوسع فى الفتح والاستكشاف ، بحيث أصبح من العسير على الحكومة المصرية إدارة هذه الاقاليم الشاسعة والمحافظة عليها . لاسيما وأن إدارة شئون السودان لم تكن تابعة لجهة واحدة . فمن الناحية المالية كان تابعا لديوان المالية بمصر، ومن الناحية الحربية لديوان الجهادية ، وفى الشئون الداخلية لديوان الداخلية .

ومما ساعد على زيادة التذمر فى السودان عقب فشل الحملة الحبشية قلة عدد الجنود المصريين عن زملائهم السودانيين فى الجيش المصرى بالسودان ، بحيث أصبح الجنود المصريون أقلية إذا ما قورنوا بعدد الجنود السودانيين . وهذه الظاهرة قد لفتت نظر غوردون عندما عين مديرا لمديرية خط الاستواء خلفا لساميويل بيكر ،

فكتب فى ذلك الوقت إلى نوبار باشا ناظر الخارجية عند وصوله إلى غندكرو فى ١٧ أبريل سنة ١٨٧٤ يقول :

« ولا أرى من المستحسن والصواب أن يكون لدينا عدد قليل من الجنود المصريين كالعدد الموجود الآن يقابله عدد كبير من الجنود السودانيين[١] » . وكان تخوف الجنرال غوردون من كثرة الجنود السودانيين له ما يبرره فقد ثارت من قبل الحامية السودانية بإستحكامات مدينة كسلا وكان يبلغ عددها أربعة آلاف جندى سودانى[٢] فى عهد ابراهيم بك أدهم مدير كسلا فى سنة ١٨٦٥ . واستمرت الثورة عدة شهور فشلت خلالها محاولات عديدة قامت بها قوات الباشبوزق[٣] (غير النظامية) لإخضاعها . وأخيراً أرسلت الحكومة المصرية قوات كبيرة العدد تحت قيادة أدهم بك تمكنت من إخماد الفتنة بعد معركة حامية أسفرت عن قتل ١٦٣٧ جنديا والقبض على ٧٥٩ آخرين[٤] . فقلة عدد الجنود المصريين

(1) Publications of the Egyptian General Staff. Province of the Equator. Summary of letters 4 reports of H. E. The Governor General. Part 1 Year 1874. P. 4.

وتاريخ مديرية خط الإستواء ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) نعوم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٤٠

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٣٤ « معية تركى » وثيقة رقم ١٧٢ من عمر فخرى بك وكيل حكمدار السودان إلى المعية فى ربيع ثانى سنة ١٢٨٢ « سنة ١٨٦٥ » م

(٤) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظه ٣٥ « معيه تركى » وثيقة رقم ٢٥ من عمر فخرى وكيل حكمدار السودن إلى المعيــة فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ « سنة ١٨٦٥ » .

بالسودان قد أغرى هذه الحامية على الثورة . وهذا ماحدث بالسودان عقب فشل الحملة الحبشية .

ومن العوامل التى أسهمت فى تهيئة الظروف فى السودان لقيام الثورة المهدية أن مصر لم تكن قد انتهت بعد من أعمالها الحربية ضد الحبشة حتى ووجهت بانتشار الثورة فى الصرب ضد الحكم العثمانى ، ومطالبة الباب العالى لها بالمساهمة فى إخمادها ، فرضخت مصر للأمر واضطرت الى سحب جزء كبير من قواتها بالسودان لارسالها الى جبهة القتال فى الميدان الأوربى . فقل بذلك عدد القوات المصرية بالسودان بشكل ملموس ، الى حد خلو بعض جهاته منها خلوا تاما ، مما ساعد على قيام الثورة فى دارفور[١] . وكان ذلك خلال حكمدارية غوردون للسودان فى عام ١٨٧٧ .

فتخفيض الحامية المصرية فى السودان كان له أكبر الأثر بالنسبة لمصر وخصوصاً فى الوقت الذى كانت تنتهج فيه الحكومة المصرية سياسة العنف والقوة فى القضاء على تجارة الرقيق . فهذه السياسة أغضبت تجار الرقيق وأتباعهم من ذوى السلطان والجاه فى السودان فأخذوا يؤلبون الأهالى على الحكومة . وقوى عزيمتهم فشل الحملة الحبشية وضياع هيبة مصر العسكرية ، وقلة عدد القوات المصرية . فكل هذه العوامل مجتمعة قد مهدت السبيل لظهور المهدى واستفحال خطره . فمن سوء حظ مصر أن تفشل حملاتها على

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار فى دول البحار ج ٢ ص ٣٣٣ .

الحبشة فى تلك الظروف العصيبة التى تمر بها من سياسية واقتصادية ومالية .

ولم يقف تخفيض عدد القوات المصرية عند هذا الحد ، فالأزمة المالية التى مرت بها مصر فى أواخر حكم اسماعيل جعلت تدخل الدول الأوربية وخصوصاً انجلترا وفرنسا أمراً محتوماً ، حماية لمصالح رعاياها قبل الحكومة المصرية . وكان من نتيجة هذا التدخل أن قامت نظارة نوبار باشا فى سنة ١٨٧٩ بإحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع . وكذلك استغنت عن عدد كبير من الجنود بناء على توصية لجنة التحقيق التى رأت تخفيض عدد قوات الجيش المصرى إلى ما يقرب من ٣٦ ألف جندى . على أن تخفض بعد ذلك حتى يصير عدد جنوده ١٨ ألف جندى كما نص بذلك فرمان يونيه سنة ١٨٤١ . وبخلع اسماعيل يقوم الخديو توفيق بعد توليته مباشرة فى منتصف سنة ١٨٧٩ بتخفيض عدد قوات الجيش المصرى بحيث لا تزيد عن ١٢ ألف مقاتل .

من هذا العرض الموجز لتطور قوة مصر العسكرية عقب فشل الحملة الحبشية ، يدلنا على أن مصر ، سواء رضيت أو لم ترض ، ستحاول ما استطاعت إلى ذلك سبيلا أن تحل مشكلة الحدود بينها وبين الحبشة بالطرق الودية دون الالتجاء إلى القوة أو التفكير فى استخدام القوة نظراً لأن حالتها العسكرية لا تسمح لها بأى حال من الأحوال القيام بمثل تلك المخاطرة . ولهذا كان سبيل مصر فى حل النزاع مع الحبشة هو التمسك بالمفاوضات والتشبث بأهدابها للوصول إلى اتفاق وسط يقبله الطرفان مهما طال الأمد .

الفصل الحادي عشر

المفاوضات

أشرنا فى الفصل السابق إلى ميل يوحنا ملك الحبشة إلى حل النزاع بينه وبين مصر عن طريق المفاوضات ، وذلك بعد الخسائر الفادحة التى أصيبت بها قواته فى محاولتها الثانية لإقتحام قلعة قرع. ولم يكن الخديو إسماعيل أقل رغبة منه فى ذلك . فحالة مصر المالية لا تمكنه بأى حال من الأحوال من الدخول فى مغامرة أخرى مع الحبشة ، أو مجرد الاحتفاظ بعدد كبير من قواته داخل حدودها .

هذا بالاضافة إلى ضغط الدول الأوربية الدائنة على مصر ومحاولتها التدخل فى شئونها المالية حماية لمصلحة رعاياها من الدائنين، ولإلحاح الجناب العالى من ناحية أخرى على الخديو إسماعيل فى ضرورة تقديم المساعدات الحربية اللازمة للدولة العثمانية فى حربها ضد الصرب .

كان إذن كل ما يطمع فيه وإلى مصر أن يسحب قواته من الحبشة بأقل خسارة ممكنة بعد الوصول إلى حل وسط يقبله الطرفان . وقد استغل فرصة الطلب الذى تقدم به يوحنا للدخول

فى مفاوضات ورحب به ترحيبا شديدا مظهرا حسن نيته ورغبته الأكيدة فى الوصول إلى حل سلمى للخلاف .

بدأت تلك المفاوضات برسالة من ملك الحبشة إلى السردار راتب باشا يطلب فيها حل ما بينهما من خلاف عن طريق المفاوضات . فوافق السردار على وجهة نظر الملك ، وطلب منه أن يرسل مندوبا من قبله لوضع شروط الصلح .[١]

وقد أبلغ القائد العام للحملة الخديو إسماعيل بهذا الأمر . فرحب به أيما ترحيب ، وطلب من قائده الإستمرار فى المفاوضات وأن يوضح للملك نوايا مصر الطيبة إزاء الحبشة ، وأنها لم تلجأ إلى الحرب إلا مضطرة بعد أن رفض حل المشاكل بالطرق الودية . وطلب منه أيضا أن يؤكد له « رغبته فى تصفية الجو بين الدولتين . » [٢]

الرغبة فى الصلح

أعربت مصر فى ذلك الوقت للملك يوحنا عن رغبتها[٣] فى أن يسمح لقواتها بتسلم جرحاها ، حتى تتمكن من معالجتهم بمستشفياتها

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٧ عابدين (وارد تلغرافات) شفرة عربى ، وثيقة رقم ٤٥٨ ص ٩٤ فى ١٥ صفر ١٢٩٣ (مارس ١٨٧٦)

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٨ عابدين «صادر تلغرافات» شفرة تركى . وثيقة رقم ١ ص ٥٠٢ ملحق ٢ فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ « مارس سنة ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٨ عابدين «صادر تلغرافات» شفرة تركى . وثيقة رقم ٢ ص ٥٠٣ ملحق ٢ فى ١٧ صفر سنة ١٢٦٣ «مارس سنة ١٨٧٦ » .

حيث تتوافر لديها الإمكانيات اللازمة من أدوية وأطباء . بل لقد أبدت استعدادها التام لمعالجة الجرحى من الأحباش أيضا ، وذلك إظهارها لحسن نيتها ولرغبتها الصادقة فى تجنب المنازعات . وفى ختام كتابها طلبت فى شىء من الرجاء أن يحسن الأحباش معاملة الأسرى ، وأن يغيروا من أساليبهم القديمة فى هذا السبيل .

ويبدو أن ما أحرزه يوحنا من نصر قد قوى من عزيمته وخصوصا بعد أن انضم اليه رؤوس الأحباش الخارجين عليه ، وهذا ما دفعه إلى التشدد فى موقفه من مصر . فبعد أن طلب فى أول الأمر من القائد المصرى الدخول فى مفاوضات دون قيد أو شرط ، عاد مرة ثانية يردد فى إصرار عزمه على رفض فتح باب المفاوضات إلا بعد جلاء القوات المصرية عن أراضيه . ولم يكن فى وسع مصر - فى ذلك الوقت - أن تنسحب من الأراضى الحبشية قبل أن تصل إلى اتفاق بشأن المنطقة المتنازع عليها ، كى تضع حداً لمناوشات الحبشة فى المستقبل .[1]

عودة الأمير حسن :

ونظرا لما بدا من عدم رغبة يوحنا فى حسم النزاع فى وقت قريب ، ونظرا لتجمد الموقف الحربى عند هذا الحد ، أبدى الأمير

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٧ عابدين «وارد تلغرافات» من السردار راتب باشا إلى ناظر الجهادية . شفرة عربى ص ٩٨ فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ « مارس سنة ١٨٧٦ » .

حسن رغبته فى العود إلى مصر . ولكى يبرر هذا الطلب أوضح لوالده (الخديو إسماعيل) بأن قوات الحبشة قد أصبحت عاجزة عن مواصلة القتال بعد أن فقدت ما بين أربعين وخمسين ألف مقاتل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانسحاب يوحنا بفلول قواته إلى عدوة يثبت عدم رغبته فى الحرب . كما لا تستطيع القوات المصرية بما لديها من إمكانيات ضئيلة أن تتعقبه فى مقر إقامته بعدوة . ولذا أصبح وجوده فى تلك الظروف لا مبرر له .[١]

وجد الخديو إسماعيل فى رغبة ابنه حسن فى العودة الى مصر دليلا جديدا لإثبات حسن نواياه للملك الحبشة ، فموافقته على عودة إبنه إلى أرض الوطن معناه أن مصر لا تنوى القيام بأى عمل حربى جديد ضد الحبشة . ولذا بدأ الخديو يمهد لهذه العودة ولانسحاب القوات المصرية فى أعداد متتالية من الوقائع المصرية ، فمما نشر فى أحد أعداد الجريدة المذكورة [٢] بهذا الخصوص : « إلحاقا لمانشر بالعدد ٦٥١ نفيد أنه جار المداولة فى الصلح فاذا لم يتم يصير انشاء استحكامات بعدة مواضع من الإيالة التى فتحت ويترك بها عدد من العساكر فأصبح فى الحالين لا لزوم لإبقاء كل الجنود

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . محفظة رقم ١٦٠ عابدين ، من الأمير حسن باشا إلى المعية السنية . وثيقة تركية ص ٥٠٦ ملحق فى ٢١ صفر سنة ١٢٩٣ « مارس سنة ١٨٧٦ » .

(٢) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٥٣ المؤرخ ١٣ ربيع الأول سنة ٢٢٩٣ « ١٨ أبريل سنة ١٨٧٦ » .

الموجودين الآن فى تلك الجهات سيما وأن الحركات العسكرية تضعف فى موسم الأمطار ـ ولهذة الأسباب أصبح لاضرورة لبقاء دولتلو (حسن باشا) هناك فتعين وابور المحروسة للقيام الى جهة مصوع لاحضاره ـ فقام من السويس فى الحادى عشر من هذا الشهر ـ وعلم أن يوحنا ملك الحبشة يظهر غاية الندم لتسببه فى قطع علاقة المودة بين البلدين وأن تصرفه هذا سبب هيجان بعض رؤوس الحبشة عليهم وسعيهم فى اقصائه عن العرش الذى اغتصبه ولذلك هو يسعى جهده فى تجديد المودة بينه وبين الحكومة المصرية » .

التمهيد للانسحاب :

ونشرنا فى عدد آخر[1] « ان سردار الجيش المصرى أخطر بأن المكان الذى كانت تعسكر فيه الجنود المصرية هو (قورع) أضحى مجتمعا للسيول ولا يوافق إقامتهم . فأنتخب موقع (قياخور) البعيد عن نزول السيول ، وأنشئت فيه الإستحكامات لإقامة العساكر ونقل اليه البعض على أو يعود الباقون لمصر فتوجهت وابورات البوستة الخديوية من السويس إلى مصوع لإحضار من لاحاجة لهم هناك » .

مما تقدم ترى أن نزوح القوات المصرية عن مواقعها الأمامية وسحب بعضها من الأراضى الحبشية إنما يعد رضوخا ـ ولو بشكل

(١) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٥٥ فى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ « ٢٣ أبريل سنة ١٨٧٦ » .

جزئى ـ لرغبة يوحنا التى أعلنها من قبل والتى أصر فيها على عدم الدخول فى مفاوضات مع الجانب المصرى ما لم تنسحب قواته من المناطق التى احتلتها .

ويبدو لنا أنه كلما سلمت مصر ببعض المطالب للجانب الحبشى، كلما قل اهتمام يوحنا فى الوصول الى اتفاق معها . فالموقف السياسى والحربى لم يعد فى صالح مصر . فهى لن تستطيع فى ظروفها الحالية أن تقدم على مغامرة أخرى غير مأمونة العواقب . وفى نفس الوقت فهو يعلم تمام العلم أن مصر لن تستطيع الإحتفاظ بموقفها هذا فترة طويلة . فستضطرها الأحوال المالية المضطربة وضغط الدول الأوربية الى سحب قواتها كلية من الأراضى الحبشية فى وقت قريب . ولذا فمن الحكمة التريث والستويف والإبتعاد عن الدخول فى مفاضاوت حاسمة . ويظهر هذا بشكل واضح فى الخطابات العديدة التى تبودلت بين الملك يوحنا وراتب باشا بخصوص الصلح . فنجد يوحنا مرة يتعلل بأن السبب فى عدم ارسال مندوب من لدنه للمفاوضات ، هو رغبته فى أن يتفاوض بنفسه مع الأمير حسن بن إسماعيل . وفى مرات أخرى يعتذر عن إرسال مندوبين من قبله لعدم وجود من يثق فيهم ، وأنه سيتولى بنفسه المفاوضات ، وعلى مصر أن تبعث بمندوبيها اليه فى عدوة .

ثم عاد وأرسل من قبله بمنـــدوبين وهما (ليكاموكاس) و (وزكى) لمعرفة وجهة نظر راتب باشا بشأن المسائل المعلقة بين

الطرفين، وتتلخص فى رد الأسلحة المصرية وعودة الأسرى وتبادل التجارة بين البلدين كما كان الحال قبل نشوب الحرب .

وفى خلال المفاوضات قام يوحنا برد عدد كبير من الأسرى المصريين ووعد برد الباقى حينما يصلون اليه .

بدء المفاوضات :

وبعد أن أحاط المندوبان الحبشيان بوجهة نظر مصر فى الصلح عادا إلى ديارهما بعد أن زودهما القائد العام للحملة (راتب باشا) ببعض الهدايا للملك يوحنا . وفى تلك الفترة تمكن السردار من الاتصال سرا بمحمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية وأحد الأسرى المصريين الموجودين بعدوة ، لمعرفة نوايا الحقيقية للملك، وعما إذا كان جادا فى طلب الصلح أم أن له أهدافا أخرى يسعى لتحقيقها . « فورد منه افادتان إحداهما يذكر فيها أن الملك يوحنا صافى القلب ، ويريد الصلح وتأسف على ما وقع أولا ، ثانياً من سفك الدماء وأحب ماعليه إتصال المودة ما بين ولى النعم الخديو الأعظم ، وبتفويضنا فى هذه المسألة أكون واسطة ما بين الخديو الأعظم والملك يوحنا فى قطع هذه المسألة ، وحلها على أحسن حال » . (١)

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٨ عابدين «وارد تلغرافات» عربى الشفرة ص ٣٣ فى ٢٨ صفر سنة ١٢٩٣ « أواخر مارس سنة ١٨٧٦ » .

وقد وافقت الحكومة المصرية على إرســـال البكباشى على الروبى (أحد زعماء الثورة العرابية) إلى عدوة لينضم إلى محمد بك رفعت ليمثلا مصر فى هيئة المفاوضات ؛ على أن تتناول محادثاتهما موضوع رد الأسلحة والإفراج عن الأسرى وفتح باب التجارة بين البلدين . [١] فأوفد يوحنا من قبله ليكاموكاس وزكى لإستقبال على الروبى ومصاحبته إلى عدوة . [٢]

وأخيرا تمكن الطرفان المصرى والحبشى الوصول إلى إتفاق «يضمن تنظيم التجارة بين البلدين. واتصال البريد بينهما[٣]». ولكن مما يقلل من شأن هذا الإتفاق انه لم يدون فى وثيقة رسميـة تلزم الطرفين المتعاقدين على إحترامـــه . واكتفى يوحنا بأن يتم بصفة شفوية . وبمقتضى هذا الاتفاق أخـذت القوات المصرية فى الانسحاب التدريجى من الأراضى الحبشية . فنى ١٩ إبريل سـنة ١٨٧٦ كان قد تم إنسحاب الجنود المصريين من قلعة قرع والانضمام إلى زملائهم بموقع قياخور .

وقد انتهز الخديو إسماعيل فرصة نشوب الثورة فى الصرب ضد الدولة العثمانية ، وطلب الباب العـالى معونة مصر الحربية .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى محفظة ١٩ بحر برا تركى رقم ١٤٨ فى ٣ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ « أواخر يونيه سنة ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ١٩ بحر برا ، تركى رقم ١٥٢ فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ « أبريل سنة ١٨٧٧ » .

واستدعى قواته من الأراضى الحبشية فيماعدا أربعة آلاف جندى ظلوا باستحكاماتهم بقياخور إلى أن تم تسليم جميع الأسرى المصريين . وفى شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ تم إنسحابهم إلى مصوع. ولكنهم لم يلبثوا فيها إلا وقتا قصيرا وعادوا إلى مصر، حيث فرضت عليهم رقابة شديدة حتى لا يبوحون بشيء من أخبار الحملة المثيرة إلى أصدقائهم وذوى قرباهم . [1] وبهذا تنتهى الحملة المصرية على الحبشة بعد أن استمرت عشرة شهور تقريبا . تمتد من ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى أغسطس سنة ١٨٧٦ .

بعد أن تم جلاء القوات المصرية عن الأراضى الحبشية بعث يوحنا بخطاب شخصى إلى الملكة فيكتوريا يعرب فيه عن شكره على ماأبدته نحوه من عطف وما حبته من عناية . ثم يتطرق إلى الحديث عن الأعمال العدوانية التى قام بها الخديو إسماعيل ضد بلاده وكيف انتصر عليه . ولكنه يبدى تخوفه من أن يعيد إسماعيل الكرة مرة ثانية للانتقام منه .

ولهذا يأمل من جلالتها أن تعمل على فصل ممتلكات كل منهما عن الآخر [2] . ولا ندرى بالدقة ما يعنيه يوحنا بعبارة فصل أراضى كل منهما عن الآخر . فهل يعنى ذلك الحصول من إنجلترا

(1) Amer. Doc. vol. 12 P. 32 Despt. No. 9 Farman to Hamelton Fish. June 1,1876.

(2) F.O. inclosure of Despt. No. 51 C. Vision to The Earl of Derby. Cairo May 2nd 1877.

على وعد بضمان سلامة الأراضى الحبشية ضد إعتداءات مصر التى قد تحدث مستقبلا . أم أنه يطلب تأييدها فيما يدعى ملكيته من المنطقة المتنازع عليها ، أو كلاهما معا ؟

وفى حقيقة الأمر ، فأن يوحنا كان فى حاجة إلى تعضيد إنجلترا وإلى مساندتها عند تسوية المشكلة بصفة نهائية . فالصلح الذى تم بينه وبين مصر لم يدون كتابة «اكتفاء بما قيل شفويا عن انتهاء الخصومة ولن تبقى هناك عداوة بين الطرفين » .(١) فلم يلتزم يوحنا إذن بشروط صلح محددة قبل مصر فالصلح الذى تم بين الجانبين فى نظره مجرد هدنة مؤقتة ريثما تسنح له الظروف المواتية بتحقيق ما يصبو اليه .

على هذا النحو ظلت العلاقات المصرية الحبشية طوال الفترة الباقية من حكم إسماعيل ، إلى منتصف عام ١٨٧٩ .

التدخل الإنجليزى الفرنسى وأثره

كان لتدخل الدول الأوربية فى شئون مصر فى أواخر عهد إسماعيل ـ تحت ستار المحافظة على مصالح رعاياها من الدائنين ، وإزدياد ضغطها على الدولة العثمانية ـ وخصوصا من قبل إنجلترا وفرنسا ـ لتغيير الوضع القائم فى مصر ، أن رضخ الباب العالى

---

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩ « صادر عابدين » تركى وثيقة رقم ٣٩ من الخديو توفيق الى القبو كتخدا باستانبول فى ١٠ المحرم سنة ١٢٩٧ « أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩ »

للدولتين الكبيرتين ، فعزل الخديو إسماعيل ، وولى مكانه ابنه الخديو توفيق .

ولم يكن عزل الولاة أو تعيينهم بذى خطر بالنسبة لمصر . فطالما استغل سلاطين العثمانيين سلطاتهم فى ممارسة هذا الحق دون أن يترتب على ذلك أى تغيير فى الأوضاع الداخلية بمصر . كما لم يكن الشعب المصرى يهتم كثيرا ـ طوال الحكم العثمانى ـ بمجىء وال أو ذهاب آخر ، فجميعهم غرباء عنه ، وكلهم يعملون لمصلحتهم أولا وقبل كل شىء ، دون نظر لمصلحة البلد الذى يتولون حكمه .

أما بالنسبة لعزل إسماعيل و تولية توفيق فأمر يختلف ، فالسلطان العثمانى لم يقدم على هذا العمل بمحض إرادته كما كان من قبل ، وإنما قام به تحت الضغط الإنجليزى الفرنسى المتزايد . هذا جهة ، ومن جهة أخرى فيعتبر عزل إسماعيل لطمة قوية وجهت للحركة القومية فى البلاد نظرا لأن الخديو بدأ يتستر فى أواخر حكمه وراء القوى الوطنية ليواجه بها التدخل الأوربى والضغط الأجنبى ، بعد أن تخلت عن مساندته الدولة العثمانية ، وكذلك الدولتان الكبيرتان إنجلترا وفرنسا . فوالى مصر الجديد (توفيق) ـ كما يذكر استاذى الدكتور محمد مصطفى صفوت ـ قد « جاء إلى الحكم بناء تدخل انجلترا وفرنسا وتأييد ألمانيا لهما وهى أقوى الدول الأوربية ، ولم يكن توفيق بالرجل الذى يستطيع الإضطلاع بأمور الحكم

فى مثل هذه الظروف الشاذة العصيبة ، الظروف الدولية التى تكالبت فيها الدولتان الاستعماريتان على النفوذ والسلطة فى مصر والشرق الأدنى ، وظروف مصر السيئة التى شملت فيها الفوضى الإدارة والجيش وكل مرافق البلاد . علم توفيق أن مصيره معلق أولا وقبل كل شىء بهوى الدول الأوربية الكبرى ، ولذا أوحت اليه مصالحه أن يسير وفق سياسة هذه الدول ويعمل على رضائها قبل كل شىء » (١)
فالخديو توفيق لم يكن يستطيع البت فى أمر من أمور مصر ما لم يتفق هذا مع مصلحة الدول الأوربية وعلى وجه الخصوص مصلحة إنجلترا وفرنسا . أو على الأقل لا يتعارض هذا الأمر مع سياسة الدولتين . فعلى هدى تلك السياسة التى أمليت على والى مصر الجديد ، أخذ يتلمس طريقة وسط التيارات المختلفة من وطنية وعثمانية وإنجليزية وفرنسية .

ولم يؤثر ضعف الوالى الجديد وتخاذله على الشئون الداخلية فحسب ، وإنما امتد هذا الأثر إلى ممتلكات مصر فى القارة الأفريقية ، وإلى علاقة مصر بجيرانها ، وخصوصا علاقتها بالحبشة . فمن المرجح لاثارة النزاع من جديد . وإعتقد بأن أية تسوية قد تتم بين الطرفين سيكون لإنجلترا الرأى الأول فيها . كما أنها لن تكون فى غير صالح الحبشة .

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ص ٨

وهناك سبب آخر على جانب كبير من الأهمية ، ففرمان ولاية الخديو توفيق الصادر فى ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ (أغسطس سنة ١٨٧٩) قد نص صراحة على ألا تتجاوز القوات المصرية ١٨ ألف جندى فى وقت السلم . بل أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ،فقد أصدر الوالى الجديد بعد تعيينه مباشرة قراراً - بناء على مشورة وزرائه - بصرف عشرة آلاف جندى من الجيش العامل ، وبذلك أصبح الجيش المصرى يتألف من ١٢,٠٠٠ جندى فقط » . [١] فخفيض عدد قوات مصر إلى هذا الحد قد شجع يوحنا على مهاجمة الحدود المصرية والنيل منها .

ولذلك أخذ الأحباش يتحرشون بالأهالى الخاضعين لحكم مصر والمقيمين بالقرب من الحدود الحبشية ، وفى نفس الوقت بدأت الصحف الأوربية فى التعرض لهذا الموضوع والمبالغة فيه . وخشى توفيق من أن تصل تلك المعلومات المشوة عن حوادث الحدود إلى المسئولين بالآستانة وأن تجد لديهم آذاناً صاغية، فبعث بتقرير [٢] مفصل إلى وكيله (القبوكتخدا) بالآستانة يوضح له الأمر على حقيقته ، جاء فيه « ولكن فى الوقت الحاضر أخذ ملك الحبشة يرسل قوات عسكرية إلى الحدود ويطالب العربان والأهلين

(١) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء ج ٤ ص ٦٨٩ ، ٦٩٠

(٢) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٩ « صادر عابدين » تركى من الجناب الخديو إلى القبوكتخدا باستانبول . وثيقة رقم ٣٩ فى ١٠ المحرم سنة ١٢٩٧ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩) .

التابعين للحكومة المصرية بضرائب ، ويعاقب من لا يدفعها بالأسر والسجن وغيرها من أعمال الظلم والعدوان » .

ولما كان توفيق لا يرغب فى مقابلة القوة بمثلها ، ويحرص على فض النزاع مع الحبشة بالطرق الودية ، فقد أوفد الجنرال غوردون حاكم عام السودان « مزوداً بتعليمات ليعمل على وقف هذه الاعتداءات ويعقد صلحاً نهائياً[1]) . وكان يوحنا — فى ذلك الوقت — يصر على ضرورة ضم ميناء مصوع وإقليم بوغوص إلى الحبشة . ولكن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية نصحتاه بالاعتدال وعدم التمسك بمصوع ، وأوضحتا له بأنهما سيؤيدانه تأييداً تاماً فى موقفه من إقليم بوغوص[2] .

وبالرغم مما قدمته الدولتان من نصح ، فقد اشترط يوحنا فى مطالبه أثناء المفاوضات ، وطلب من غوردون أن تتنازل مصر عن منطقة القلابات والقاش ، وأن تدفع تعويضاً مالياً لا يقل عن مليون جنيه ثمناً لتنازله عن مصوع ، ومنحه ستة شهور للتدبر فى الأمر والإجابة على هذه المطالب[3] .

وقد عزز يوحنا مطالبه هذه بشن هجمات متكررة على حدود

(١) المصدر السابق .

(2) Amr. Doc. vol. 16 Despt. No. 336 N.D. Comanos to C. Evarts Sept. 6,1879.

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٥٤ عابدين «وارد تلغرافات» عربى الشفرة رقم ٧١٧ فى ٢٩ ذى القعدة ١٢٩٦ « ١٨ نوفمبر ١٨٧٩ » .

مصر ، وذلك للضغط عليها وإرغامها على التسليم . ولما كانت تلك الرغبات لا يمكن تحقيقها ، وفى نفس الوقت لم تكن حالة مصر المالية أو العسكرية تسمح لها بالدخول فى حرب جديدة ، فقد آثرت مصر الوقوف موقف الدفاع وأن تقوم برد كل اعتداء ، حتى يصل الطرفان إلى تسوية عادلة[١] .

وقد ساعد مصر على التمسك بموقفها وعدم الرضوخ لتهديد يوحنا باستخدام القوة « إن الحبشة نظراً لحالتها الراهنة ، وبناء على عدم انتظام جيشها ليست فى موقف يسمح لها باختراق الحدود المصرية والاستيلاء على مناطق فيها ، ولكنها مع الأسف الشديد قادرة على أن تأتى بأعمال من شأنها أن تقلق راحة السكان القاطنين بجوار الحدود وتجشم الحكومة مصاريف مختلفة ، ومع ذلك لا تقوم الحكومة المصرية بأعمال هجومية ، وإنما تعمل على حماية الحدود وأرواح السكان ودفع اعتداءات الأحباش[٢]) .

فشلت المفاوضات إذن نتيجة مغالاة يوحنا وعدم رغبته فى الوصول إلى حل وسط ، ولذا نجد غوردون يقترح على الحكومة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٨ عابدين «صادر تلغرافات» تلغرافات رقم ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٩ (إرادة سنية إلى حسن حلمى باشا بالخرطوم ومدير التاكه فى ٦ ، ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٩) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٩ (صادر عابدين) تركى وثيقة رقم ٣٩ من الجناب الخديو إلى القبوكتخدا باستانبول فى ١٠ المحرم سنة ١٢٩٧ « ديسمبر سنة ١٨٧٩ » .

المصرية كحل جزئى لهذا النزاع ، أو بمعنى أصح لتخفيف الضغط الواقع على حدود مصر ، أن تمنح إيطاليا قطعة أرض بالقرب من مصوع ؛ كى تواجه الحبشة بذلك عدواً جديداً تجد فيه مايشغلها عن مناوأة مصر[1] ؛ وكانت هذه السياسة تتفق مع سياسة انجلترا فى ذلك الوقت تلك السياسة القائمة على الاعتراف ببعض المصالح لإيطاليا فى تلك المنطقة حتى لا يمتد إليها نفوذ فرنسا .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٥٥ عابدين (وارد تلغرافات) تلغراف عربى الشفرة رقم ٩٣٠ من غوردون إلى خيرى باشا فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩ .

الفصل الثاني عشر

التسوية النهائية

انتهت حكمدارية غوردون للسودان دون أن يصل الى اتفاق مع الحبشة بشأن الحدود . وقد حرصت مصر على أن تزود محمد رؤوف باشا الذى خلف غوردون على حكمدارية السودان فى مارس سنة ١٨٨٠ بتعليمات صريحة بما يجب أن تكون عليه العلاقة مع الحبشة . فجاء بالدكريتو (كتاب التولية) الصادر اليه بشأن مهمته كحاكم عام للسودان مايلى : « من المهم عند وصولكم الى مركز الحكمدارية أن توجهو أنظاركم والتفاتاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الأمن والنظام العام بكافة انحاء المملكة ، خصوصا تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها فى الحالة الراهنة مع مايترتب عليه الأمن والإطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيدا بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا فى هذه المسئلة وهى أننا لا نقصد أى تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أى فتوح جديد إنما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعد على حدودنا فهذه الأفكار هى التى تكون أسس اعمالكم فى ترتيب وتنظيم عسكرية السودان »[1]

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ حاشية ص ٦٤٢

فسياسة مصر فى ذلك الوقت كانت ترمى الى المحافظة على حدودها الجنوبية مع الحبشة ، وذلك بالعمل على تقويتها ورد أى عدوان يقع عليها . وفى نفس الوقت فقد أوضحت للحكمدار الجديد للسودان - بما لا يدع مجالا للشك - بأنه يجب ألا يغرب عن باله أنها لا تعنى بهذا القول تشجيع العدوان على الحبشه أو التطلع الى الاستيلاء على أراضيها بأى حال من الأحوال .

كان هذا هو موقف مصر إزاء الحبشة فى السنتين السابقتين للاحتلال الانجليزى ، فالحالة المالية والسياسية لا تسمح لها القيام بمغامرات حربية جديدة . وفى نفس الوقت فهى لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين أمام اعتداءات الحبشة المتكررة على حدودها .

الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى

لم تكن شخصية الخديو توفيق أو طريقته فى الحكم مما يساعد على التغلب على المشاكل التى واجهته فى بداية عهده بالحكم ، فلم يكن بطبيعته يميل الى النظم الدستورية أو الحكم النيابى . واذا كان هذا الميل قد صادف هوى فى نفوس الدول الكبرى وعلى رأسها انجلترا وفرنسا ، إلا أنه لم يحز قبول الرأى العام المصرى بصفة عامة ورجال الجيش بصفة خاصة ، فقامت ثورة مصر القومية الأولى متأثرة بنمو حركة الجامعة الاسلامية والوعى الوطنى وإزدياد تغلغل النفوذ الأوربى .

تطورت الأمور سراعا فى مصر ، فالحكومة القائمة وقتذاك (سنة ١٨٨٠) وهى حكومة رياض باشا لم تعمل على تهدئة حالة التذمر فى الجيش ، وأدى اسرافها فى الاعتماد على طبقة الضباط الأتراك والجراكسة والتنكيل بالضباط الوطنين الأحرار الى تفاقم الحالة والى قيام الثورة .

وفى عام ١٨٨١ حدث تطور فى ميزان القوى الدولية فى البحر الأبيض المتوسط ، وذلك باستيلاء فرنسا على تونس وارغامها على قبول معاهدة باردو أو معاهدة قصر السعيد فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وكان هذا التطور فى غير صالح مصر ، فقـــد اعتبرت انجلترا أن احتلال الفرنسيين لتونس قد أخل بالتوازن الأوروبى فى البحر الأبيض المتوسط ، ومنح فرنسا نفوذا متفوقا على النفوذ الانجليزى ، وأن هذا التوازن لن يعود الى حالته الطبيعية إلا باحتلالها مصر ـ فعلى انجلترا أذن أن تستغل الأوضاع غـــير المستقرة فى مصـــر لتحقيق أهـــدافها متعللة فى سبيل ذلك بمختلف المعاذير .

وقد اجتمع مؤتمر من الدول الأوربية المعنية بالأمر فى الآستانة فى ٢٣ يونية سنة ١٨٨٢ للنظر فى المسأله المصرية وايجاد الحل اللازمة لها بما يضمن المصالح الأوربية أولا وحقوق البـاب العالى ثانيا . وقد طالت المناقشات داخل أروقة المؤتمر وقاعاته ، واخيرا قرر المؤتمر تكليف الباب العالى بأن يقوم بمفرده باعادة الاستقرار والنـظام الى مصر بصفته صاحب الحق الشرعى .

ولكن المناقشات تعثرت عندما حاول الأعضاء وضع شروط محددة لهذا التدخل .

وفى خلال ذلك تمكنت انجلترا من ضرب الاسكندرية وانزال قواتها بمنطقة القناة ، ووضع مؤتمر الآستانة أمام الأمر الواقع ؛ هذا المؤتمر الذى لم يسلم لأية دولة من الدول بأن تتدخل بمفردها لإخماد الثورة فى مصر . ولكن انجلترا قامت منفردة بهذا العمل ، اعتقاداً منها بان الدول الأروبية لن تقوم ضدها بأى عمل ايجابى ، ففرنسا لن تعترض على ذلك لأنها دعيت الى التدخل ، ولكن حكومتها رفضت ذلك لمعارضة البرلمان . أما عن المانيا فرغم معارضتها للتدخل الفردى فانها كانت تحض انجلترا على احتلال مصر منذ عام ١٨٧٥ . وأما امبراطورية النمسا والمجر فقد أبدت ارتياحها لهذا العمل ، واعتبرته حلا لا بد منه لإقرار الأوضاع فى مصر .

أما روسيا فلم تكن لها مصالح حقيقية فى مصر ، ولهذا اكتفت بالتأسف على قيام انجلترا بهذا العمل . وأما موقف ايطاليا فكان مشوبا بالمرارة وخيبة الأمل لإنفراد انجلترا وحدها باحتلال مصر دون أن يكون لها نصيب فى ذلك بحكم موقعها الجغرافى كدولة كبرى من دول البحر الابيض المتوسط .

الثورة المهدية :

للثورة المهدية أسباب متعددة ، بعضها يتعلق بالموقف الدولى بصفة عامة وبعضها يرجع إلى ظروف مصر السياسية والاقتصادية

فى أواخر عهـــد اسماعيل وأوائل عهد توفيق . والبعض الآخر يرجع إلى الظروف المتعلقة بالسودان نفسه .

فاذا تناولنا الموقف الدولى فى السبعينات من القرن التـاسع عشر وما يليها نجد أن الحكومة الانجليزية ـ بصفة خاصة ـ قد أخذت تهتم بشئون السودان ، وبما يحدث فيه . فقد أشارت على الخديو اسماعيل باستخدام السيرساميويل بيكر للقضاء على تجار الرقيق استجابة لضغط جمعية مكافحة الرق Anti-Slavery Society . وبعد أن أنتهى من مهمته نصحته مرة أخرى باستخدام غوردون لإتمام مابدأه سلفه من قبل . وبناء على تلك النصيحة عين غوردون حاكما لمديرية خط الاستواء . ثم لم يلبث أن قفز إلى منصب الحاكم العام للسودان ليتولى تنفيذ اتفاقية الغاء الرق التى ابرمتها الحكومة الانجليزية مع الخديو أسماعيل فى سنة ١٨٧٧ .

وسنجد أن تدخل انجلترا فى شئون السودان قد أرغم والى وإلى مصر على اتباع سياسة معينة لم تكن فى صالح مصر أو السودان ، بل أساءت إلى شطرى الوادى أيما اساءة . وكان من نتيجتها أن غادر الجنرال غوردون السودان فى منتصف عام ١٨٧٩ بعد عزل اسماعيل وهو على وشك الانفجار .

وخلاصة القول فإن الثورة العرابية فى مصر قد أدت الى اشعال الثورة فى السودان، فكلا الثورتين العرابية والمهدية قد تأثرت بحركة الجامعة الاسلامية . وكل من مصر والسودان قد تعرض

فى السنوات التى سبقت الثورة لظروف واحـــدة من الضغط والتدخل الأجنبى .

هذا بالاضافة إلى السياسة التعسفية التى سلكها غوردون فى السودان لإخراج اتفاقية الغاء الرق إلى حيز الوجود ، وماترتب على تلك السياسة من القضاء على اقتصاديات السودان وازدياد السخط على الحكومة .

كانت ظروف الحكمدار الجديد محمد رؤوف سيئة للغاية ، فالأحوال فى السودان كانت تنذر بشر مستطير رغم الهـــدوء الظاهرى الذى بدا فى أول الأمر . ولم يكن لديه من القوات ماتمكنه من اقرار الأوضاع فى السودان . فغالبية جنود السودان من الباشبوزق (جنود غير نظامين) المبعثرين فى انحائه المترامية . زيادة على ذلك فالأمور الداخلية فى مصر قـد اضطربت نتيجة قيام الثورة العرابية ، وتهديد الدول الأوربية وعلى رأسها انجلترا بالتدخل لاخمادها .

وجد محمد رؤوف انه لا يستطيع الاعتماد على القاهرة فى ذلك الوقت ، فالثورة العرابية كانت مشغولة بنفسها وبالخطر المحدق بها . ولم يكن لديها من الوقت مايسمح لها بالتفرغ لشئون السودان . ولذا فقد اعتمد على نفسه وعلى ماتحت يديه من امكانيات ضئيلة ، وحاول قدر طاقته أن يتصرف فى حدودها .

استغلت الحبشة فرصة هذا الاضطراب السياسى الذى شمل

مصر والسودان وأخذت تهاجم حدود السودان . ولكن خطر مهاجمة الأحباش يتضاءل أمام خطر الثورة المهدية التى أخذت تهدد الحكم المصرى بالسودان تهديد خطيرا . فلا عجب اذا ما انصرف محمد رؤوف عن مشاكل الحدود المصرية الحبشية الى ماهو أهم وأجدى .

وحينما وجدت حكومة الثورة فى مصر أنها لا تستطيع تقديم المساعدات الحربية الى السودان لشد أزر محمد رؤوف ، وأنه قد أصبح فى نظرها عاجزعن اخماد الثورة فى السودان ، قامت بعزله وتعيين عبد القادر حلمى خلفا له . ووجه الحكمدار الجديد بالموقف على حقيقته وأخفقت جهوده أيضا فى القضاء على الثورة نظرا لافتقاره الى الرجال والسلاح ولم تكن حكومة الثورة فى ذلك الوقت -أى فى بداية عام ١٨٨٢- بقادرة على ارسال أية امدادات الى السودان .

وحتى بعد أن وقعت مصر فى قبضة الاحتلال الانجليزى فى عام ١٨٨٢ ، لم تبد سلطات الاحتلال أى اهتمام بشئون السودان ، بل كانت جهودها مركزه فى الغاء جيش الثورة ومحاكمة العرابيين . وبعد أن فرغت من مهمتها هذه بدأت فى ينـــاير سنة ١٨٨٣ فى تكوين الجيش المصرى الجديد تحت إشراف السردار العـام الانجليزى ايفلن وود Evelyn wood . حدث كل هذا والاحول فى السودان تزداد سوءا يوما بعد يوم ، والمعتمد البريطانى فى مصر مشغول بتصفية المشاكل التى خلقتها الثـورة وتعويض

الأجانب عما لحق بممتلكاتها من اضرار نتيجة الحريق الذى شب فى الاسكندرية أثناء الثورة .

سياسة انجلترا ازاء السودان

كانت وجهة نظر الحكومة الانجليزية فى الشهور القلائل التى أعقبت الاحتلال تتلخص فى عدم التورط فى أعمال حربية بالسودان ، والاكتفاء بما تقوم به الادارة المحلية السودانية من جهود فى هذا الشأن . ولم يكن لدى الحكومة الانجليزية ما يمنع من أن تتخلى مصر عن بعض أجزاء السودان وأن وأن تركز اهتمامها فى المحافظة على الخرطوم .

فانجلترا اذن لم تكن تريد التورط فى شئون السودان ، فإذا كان احتلالها لمصر لم ترسخ أقدامه بعد ، فعلى الأقل يجب عليها أن تقف من شئون السودان موقف التريث وعدم الاندفاع ، خصوصا وأن رجال السياسة الانجليز من أمثال جلادستون رئيس الوزارة الانجليزية وجرانفل وزير خارجيته والسير افلن بيرنج المعتمد البريطانى فى مصر ، كانوا يرون فى الممتلكات المصرية فى السودان عبئا ماليا واداريا كبيرا .

وفى أواخر سنة ١٨٨٢ أرسلت الحكومة الانجيزية مندوبا من قبلها يدعى الكولونيل استيوارت لدراسة أحوال السودان وتقديم تقرير عنها. وقد انتهى من مهمته هذه فى ٩ فبراير عام ١٨٨٣

فبعث الى حكومته بتقرير مفصل عن الأحوال فى الخرطوم بصفة خاصة والأوضاع السائدة فى السودان بصفة عامة . ثم أعقبه بتقرير آخر أرسله من مصوع فى ٨ ابريل من نفس السنة . وقد أحيطت حكومة شريف علما بهذين التقريرين . وحاولت سلطات الاحتلال فى مصر أن تسير على هدى هذين التقريرين ، بالاضافة الى التقرير الثالث الذى وضعه اللورد دوفرين Dufferin سفير انجلترا بالأستانة بشأن تنظيم أمور مصر السياسية والاقتصادية عقب القضاء على الثورة العرابية .

وقد أجمعت هذه التقارير الثلاثة فيما يتعلق بالسودان على عدم تأييد فكرة الانسحاب واخلاء السودان كلية لما فى ذلك من الاضرار بمصالح مصر والسودان فى نفس الوقت . وقد أوضحت هذه التقارير بأنه اذا ماتعذر على مصر السيطرة على جميع الاقاليم السودانية ، فعليها ان تبذل جهدها فى الاحتفاظ بما تحت يديها من اقاليم وخصوصا مديريتى الخرطوم وسنار .

كما أشارت التقارير ايضا بضرورة تقديم المساعدات الحربية اللازمة للسودان حتى لايخرج الأمر كلية من يدى مصر . وكان هذا من دوافع ارسال الحكومة المصرية لحملة هكس Hicks . وقائد الحملة من الضباط البريطانيين المتقاعدين ، وقد استخدمته الحكومة المصرية بصفته الشخصية دون أن تتحمل الحكومة الانجليزية مسئولية تعيينه فى هذا المنصب ، أو مسئولية الحملة بصفة عامة .

ونظرا للاهمال الشديد الذى لقيته الحمله من المسئولين فى مصر وبريطانيا على السواء، وجهل القائمين على أمرها بطبيعة أرض السودان، وعدم اختيار المكان المناسب للدخول فى حرب مع المهدى. كل هذا كان له أكبر الأثر فيما لقيته الحملة من هزيمة ساحقة على أيدى الدراويش.

تطورت الأمور فى السودان تطورا خطيرا بعد هزيمة الحملة، ووجد شريف باشا رئيس الوزارة المصرية أن من الضرورى الاستعانة بانجلترا فى القضاء على الثورة، وأوضح للمعتمد البريطانى السير افلن بيرنج انه اذا لم تقدم انجلترا جنود انجليزية أو هندية لمعونة مصر، فانها ستضطر الى طلب مساعدة الباب العالى « على ان انجلترا وان كانت تخشى مثل هذه المحاولة الا انها بينت لسير افلن حين استفتاها بأن يعلم شريفا بأن مساعدة انجلترا غير ممكنة وأنه ليس من مصلحة مصر استدعاء جنود تركية. وان الحل الوحيد هو اخلاء السودان الى اسوان أو وادى حلفا، وكان لسياسة كرومر فى هذه المسألة قصر نظر لامثيل له. » (١)

لم يكن شريف باشا يفكر مطلقا فى التخلى عن السودان كحل للمشكلة السودانية، ولهذا لم يعر تلك النصيحة اهتماما كبيرا. ولكن

---

(١) — د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الاوربية ازاءه ص ٢٥٥

ولكن الحكومة البريطانية أصرت على وجوب احترام الحكومة المصرية لما يسدى اليها من نصح . وهددت باستخدام كل السبل لتنفيذ أوامرها . وقد بدا هذا واضحا من البرقية التى بعث بها اللورد جرانفيل وزير الخارجية الانجليزية الى اللورد كرومر فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وهذا نصها : « لا أرى حاجة الى أن أوضح لكم أنه من الواجب ، مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها للخطر . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى ان تصر على اتباع السياسة التى تراها . ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة . وأن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين ، سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها اليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » (١)

---

(١) — الكتاب الاخضر « السودان من ١٣ فبراير عام ١٨٤١ الى ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ » رئاسة مجلس الوزراء . القاهرة ١٩٥٣

أمام هذا الضغط الانجليزى لم يجد شريف باشا بدا من تقديم استقالته احتجاجا على التدخل السافر الضار بمصر . وحاولت انجلترا أن تجد فى رياض باشا بديلا ، ولكنه رفض ايضا . فلجأوا الى نوبار باشا فقبل تأليف وزارة جديدة على اساس قبـــول نصيحة انجلترا باخلاء السودان .

معاهدة عدوة

بعد أن تم لانجلترا ما أرادت بموافقـة الوزارة المصرية على اخلاء السودان فى ٨ ينـاير سنة ١٨٨٤ ، بدأت تفـكر فى طريقة تنفيذ هذا الاخلاء . وكان الموقف فى السودان خطير جـــدا ، وخصوصا فى شرق السودان حيث أطبقت قوات المهدى ورجال القبائل على حاميات كسلا وأميديت وسنهيت وقطعت عنها كل اتصال بالخرطوم .

وقد وجدت الحـكومة الانجليزية أن أفضل السبل لانقاذ القوات المصرية فى شرق السودان هو الاتفاق مع يوحنا امبراطور الحبشة على تقديم العون العسكرى والتسهيلات اللازمة لانسحاب تلك القوات عن طريق الحبشة . فى مقابل الاعتراف له بكل المطالب الاقليمية التى كانت مثار نزاع بينه وبين خديو مصر . أى أن بريطانيا قد ضغطت على حكومة مصر لقبـــول التنازل عن بعض ممتلـكاتها للحبشة نظير مساعداتها للقوات المصرية بشرق السودان

على الانسحاب . وكما نجحت بريطانيا فى ارغام مصر على قبول الجلاء عن السودان ، نجحت أيضا فى اقتطاع أجزاء من ممتلكاتها فى السودان الشرقى ومنحها للحبشة.

وفى ٣ يونية سنة ١٨٨٤ تمكنت الأطراف الثلاثة المعنية بالأمر وهى مصر والحبشة وانجلترا من عقد معاهدة عدوة . وقد وقعها عن الجانب الانجليزى الأميرال السيد ويليام هيوت قائد الأسطول الانجليزى فى الشرق الأوسط الهند ، وعن الفريق المصرى مازون بك محافظ مصوع وعن الجانب الحبشى الامبراطور يوحنا نفسه . وفيما يلى أهم مواد تلك المعاهدة : (١)

المادة الأولى : وتنص على السماح للحبشة بعد توقيع تلك الاتفاقية على مباشرة عملياتها التجارية عن طريق ميناء مصوع عبر الأراضى المصرية بما فى ذلك الأسلحة والذخائر .

المادة الثانية : ابتداء من أول سبتمبر سنة ١٨٨٤ ترد إلى ملك الحبشة بلاد بوغوص (٢) ، وعند جلاء القوات المصرية عن تحصينات كسلا وأميديب وسنهيت تؤول ملكيتها بما فيها من منشئات ومبان مصرية ، وبما تشتمل عليه من مهمات وذخائر الى ملك الحبشة .

---

(١) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء جـ ١ ص ٦٧٦

(٢) رد هذا الاقليم الى الحبشة فى ١٢ سبتمبر عام ١٨٨٤ .

المادة الثالثة : يتعهد ملك الحبشة بتقديم كافة التسهيلات الممكنة للقوات المصرية فى انسحابها من كسلا واميديب وسنهيت عبر الحدود الحبشية إلى مصوع .

المادة الرابعة : يتعهد خديو مصر من جانبه كذلك بأن يمنح ملك الحبشة كافة التسهيلات اللازمة فيما يختص بتعيين رجال الدين (القسس) فى الحبشة .

المادة الخامسة : وتنص على تعهد الطرفين المصرى والحبشى على تبادل المجرمين الفارين من العدالة .

المادة السادسة : فى حالة حدوث خلاف بين خديو مصر وملك الحبشة بعد التصديق (١) على هذه المعاهدة ، يقبل الطرفان تحكيم ملكة انجلترا فى تسويته .

وقد قام امبراطور الحبشة بما تعهد به ، ويذكر اسماعيل سرهنك أنه « بعد عقد المعاهدة المذكورة مع ملك الحبشة أرسل الملك حنا كاسه جيشا بقيادة الرأس دهنشوم فأنقذ حامية القلابات فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ وأرسل جيشا آخر بعد ذلك إلى الجيرة فأنقذ حاميتها أيضا (يوليه ١٨٨٥) وأنزل عساكرها إلى مصوع عن طريق بلاده » (٢) .

---

(١) صدقت جلالة ملكة بريطانيا على هذه المعاهد فى ٤ يوليه عام ١٨٨٤ ، وصدق عليها خديو مصر فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٤ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار ج٢ ص ٤٨٨

على هذا النحو تنتهى المنازعات بين الخديو و يوحنا فى ظروف غير مواتية بالنسبة لمصر . وعلى أى حال فتنازل مصر عن بعض ممتلكاتها للحبشة ـ وان كان يعد خسارة أرغمت على قبولها ـ فهى لا تقارن إذا قيست بخسارتها فى الجلاء عن السودان بأكمله .

المطامع الدولية فى ممتلكات مصر بأعالى النيل وشرق افريقيا

بعد أن وافقت الحكومة المصرية مضطرة على إخلاء السودان استجابة لنصيحة انجلترا ، استقر رأى الحكومة الانجليزية على ارسال غوردون الى الخرطوم لتصفية الممتلكات المصرية وتأمين سلامة القوات المصرية والأجانب بالسودان . ولم يكن اختيار غوردون ـ فى حقيقة الأمر ـ لإنجاز هذه المهمة موفقا . فسياسة القوة والبطش التى سار عليها اثناء حكمداريته للسودان مازالت ماثلة فى الأذهان . كما « لم يكن ارسال جوردون وهو أجنبى أوربى مسيحى ليوقف خطر المهديين فى أكبر أوقات انتصـــارهم ، وفى أعظم درجات حماستهم الدينية التى أخذت تكتسح كل شىء فى طريقها ، لم يكن ارساله خطة حكيمة ، ولذا لم يكن غريبا أن يفشل جوردون فى محاولته . » [1]

باءت جميع الخطط التى وضعها غوردون لانقاذ الموقف فى السودان بالفشل ، كما أخفقت أيضا كل الحملات التى ارسلت لنجدته وترتب على ذلك سيطرة المهديين على معظم أجزاء السودان ،

(١) د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الأوربية إزاءه ص ٢٥٦

وانقطاع المواصلات بينها وبين مصر. وقد زادت خطورة المهديين باستيلائهم على أم درمان فى يناير عام ١٨٨٥، وتهديدهم الخرطوم تهديدا مباشرا.

وقد شجع سقوط أم درمان المهديين على مواصلة حصارهم للخرطوم والتشديد عليها قبل أن تتمكن الحكومة المصرية من نجدتها وتم لأنصار المهدى الاستيلاء على العاصمة فى يناير عام ١٨٨٥ وقتل غوردون والتنكيل به. ومنذ ذلك الوقت أصبح المهدى سيدا للسودان دون منازع، ثم انتقلت السلطة من بعده الى خليفته عبدالله التعايشى.

مات المهدى بعد سقوط الخرطوم مباشرة وترك لخليفته تركة مثقلة بالأعباء فالدولة الجديدة قامت على أكتاف الدراويش ممن لا خبرة لهم بالسياسة أو شئون الحكم. زد على ذلك أن موت المهدى المفاجىء دون أن يتمكن من تثبيت دعائم الحكم المهدى فى السودان على أسس وطيدة من النظام، قد جعل من هذه الدولة الكبيرة بناء لا أساس له، ولا يستطيع الصمود أمام العواصف، وما كان أشدها وأكثرها.

كان من أهم الواجبات - فى نظر التعايشى - هو المحافظة على كيان هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف من أطماع الدول الأجنبية، وكذلك الدفاع عن حدود السودان الشمالية من انتقام انجلترا.

ورغم قيام الحكم المهدى فى السودان كحقيقة واقعة ، فإن الدول الأوربية . قد أغفلت هذه الحقيقة واعتبرت السودان أرضا ليست ملكا لأحد res nulius . وبناء على هذه النظرية أو هذا التفسير أصبح من حقها أن تقتطع من أجزائه ماتشاء .

ولهذا فتاريخ القرن التاسع عشر من الثمانينات حتى نهايته يمثل صفحة من الصراع الاستعمارى ، السياسى والحربى لتقسيم أفريقيا بصفة عامة ، ومنطقة أعالى النيل بصفة خاصة . فما أن بذغ فجر القرن الحالى إلا وكانت أغلبية القارة الأفريقية قد قسمت فيما بين الدول الأوربية .

لم تنظر الحكومة الانجليزية بعين الارتياح إلى محاولة بعض الدول الأوروبية التسلل فى شرق أفريقيا والتقدم صوب منطقة أعالى النيل ، وخصوصا على حساب الممتلكات المصرية السابقة فى السودان . لأنها كانت تعتبر أن إخلاء مصر للسودان إنما يعتبر عملا مؤقتا ريثما تستطيع مصر تكوين جيش قوى لاستعادته من جديد . وفى نفس الوقت فإن التمسك بهذه النظرية يفيد انجلترا ، فاحتلالها لمصر يمنحها نوعا من الوصاية عليها وعلى ممتلكاتها . فإذا ما رغبت انجلترا فى وضع يدها على السودان ، فستقوم بهذا العمل

باسم مصر ولحسابها من الناحية الرسمية .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان منطقة أعالى النيل على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمشروعات انجلترا التوسعية فى أفريقيا ، فهى تحلم بخلق امبراطوريتها الأفريقية التى تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى مدينة الكاب جنوبا ، وتشطر القارة الافريقية إلى شطرين . وستكون منطقة أعالى النيل بطبيعة الحال مركز الدائرة لهذه الامبراطورية ، وحلقة الاتصال فى سكة حديد القاهرة الكاب .

وسيكون للموقف الدولى بصفة عامة ، وموقف فرنسا بصفة خاصة الاعتبار الأول فى تشكيل سياسة انجلترا إزاء تلك المناطق ففرنسا كانت الدولة الوحيدة التى عارضت الاحتلال الانجليزى لمصر معارضة جدية ، ووقفت له بالمرصاد منذ أن وطأت أقدامه أرضها.

فانجلترا إذن كانت تخشى من أن تؤدى معارضة فرنسا لبقاء احتلالها لمصر إلى اقدامها على مهاجمة منطقة أعالى النيل لارغام انجلترا على الدخول فى مفاوضات معها لحل المسألة المصرية . ولهذا فقد حرصت على منع فرنسا من الوصول إلى هذه المنطقة بأى حال من الأحوال . وفى نفس الوقت كان عليها أن تحول بين ايطاليا والحبشة وألمانيا وبين الوصول إلى أعالى النيل ، لما بدا من تلك

الدول من رغبة أكيدة فى السيطرة عليه .

بدأت انجلترا تعمل على استرضاء ايطاليا التى ساءها احتلال انجلترا مصر دون أن يكون لها نصيب فى الغنيمة ، حتى لا تنضم إلى عدوتها فرنسا . ولما كانت ايطاليا قد أخذت تبدى اهتماما كبيرا بيناء عصب بعد أن اشترته من الشركة الايطالية فى سنة ١٨٨٢ ، وأرادت أن تتخذ منه نقطة ارتكاز لعملياتها التوسعية على ساحل البحر الأحمر الغربى ، فقد وجدت انجلترا أن من الحكمة تشجيع ايطاليا على هذا العمل وفتح مجال لتوسعها فى تلك المناطق بالقدر الذى تحدده لها . وبهذا تتمكن انجلترا من ارضاء ايطاليا وفى نفس الوقت الحيلولة بين هذه المناطق وبين أن تقع فى يد عدوتها فرنسا .

وبناء على ذلك نجد أن انجلترا تعقد مع ايطاليا فى سنة ١٨٨٥ اتفاقا يخول لها الحق فى احتلال مصوع ، ولم يكن مواد معاهدة عدوة التى عقدتها معه فى ٣ يونيه سنة ١٨٨٤ والتى تعهدت فيها بالسماح للأسلحة والمهمات الواردة إلى الحبشة أن تصل إليها عن طريق مصوع . بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد . فباستيلاء ايطاليا على مصوع أوقفت مرور الأسلحة إلى يوحنا امبراطور الحبشة ، وسمحت بارسالها لعدوه منليك ملك شوا . وبهذا العمل تنقض انجلترا اليوم ما عقدته بالأمس . والسبب فى ذلك هو مصلحة انجلترا أولا وقبل كل شىء . فمصلحتها بالأمس كانت فى التعاون

مع يوحنا لتسهيل انسحاب القوات المصرية فى شرق السودان والعمل على تخليصها من الحصار المطبق حولها . أما اليوم فكان «على بريطانيا أن تميز فى هذه الظروف بين حليفين الحبشة أو ايطاليا . ولما كانت مطامع ايطاليا لا يمكن أن تحقق إلا على حساب الحليف الآخر وهو الحبشة ، فلم يجد الانجليز بدا من التضحية بالامبراطور»[1].

ثم أخذ الايطاليون يبسطون سيطرتهم على بيلول فى شمال عصب وأعلنوا ضم ميناء زولا إلى ممتلكاتهم فى سنة ١٨٨٨ . وبذلك أصبحت الممتلكات الايطالية على ساحل البحر الأحمر الغربى تمتد من رأس قصار (جنوب ميناء سواكن) إلى أوبوك على الساحل . وفى مارس سنة ١٨٩٠ أعلنت الحكومة الايطالية تسمية هذه الأقاليم باسم مستعمرة إريتريا . تم كل هذا بتشجيع انجلترا وطبقا للسياسه التى رسمتها من قبل .

كذلك وافقت انجلترا على احتلال ايطاليا لإقليم كسلا ، وتوجيه نشاطها العلمى والتجارى لاقليم هرر . وكانت الحبشة قد احتلته بعد اخلائه من القوات المصرية مباشرة ، وتوطد نفوذ ايطاليا فى هذه المناطق باتفاقها مع انجلترا فى عامى ١٨٩١ ، ١٨٩٤

---

(١) د. على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ص ١١٢

واعتراف انجلترا بادخال الحبشه جميعها فى دائرة النفوذ الا يطالى وبحيث لا تتجاوز هذا النطاق إلى منطقة أعالى النيل بأى حال من الأحوال .

وبهذه الطريقة عالجت انجلترا مسألة تسرب النفوذ الفرنسى إلى منقطة أعالى النيل عن طريق شرق أفريقيا ، وحالت بين التوسع الفرنسى على الساحل الشرقى لافريقيا وبين الامتداد إلى أعالى النيل بحيث نجد أن نفوذ فرنسا على هذا الساحل قد امتد من ميناء أوبوك إلى منطقة تقرب من زيلع . وبعد ضم ميناء جيبوتى اليها فى سنة ١٨٨٨ ، أعلنت الحكومة الفرنسية فى مايو سنة ١٨٩٦ توحيد جميع تلك المناطق التى تشمل أوبوك وتاجورة والساحل الصومالى فى إدارة واحدة ؛ أطلقت عليها اسم الصومال الفرنسى .

وإذا كانت انجلتر قد تمكنت من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع فرنسا من الوصول إلى منطقة أعالى النيل عن طريق شرق أفريقيا ، فإنها لم تستطع أقامة هذا السياج فى غرب السودان رغم مابذلته من محاولات .

ولما كانت ممتلكات المانيا وبلجيكا تجاور الحدود السودانية من ناحية الغرب ، فقد لجأت انجلترا إلى الدخـــول فى مفاوضات مع ألمانيا أولا ، القصد منها اغلاق هذه المناطق فى وجه فرنسا ،

وذلك عن طريق مد حدود الممتلكات الألمانية فى الكمرون بحيث تمتد شرقا حتى حدود الكنغو وشمالا حتى بحيرة تشاد، وبذلك تفصل منطقة أعالى النيل عن الممتلكات الفرنسية فى غرب أفريقيا، وتم لها ذلك بمقتضى المعاهدة التى عقدت بين الطرفين الانجليزى والألمانى فى نوفمبر عام ١٨٩٣.

ولكن هذا السياج الذى أقامته انجلترا فى وجه التقدم الفرنسى من ناحية الغرب قد تصدع نتيجة للاتفاق الذى تم بين المانيا وفرنسا فى مارس عام ١٨٩٤ والذى تنازلت فيه فرنسا لألمانيا عن هذا الامتياز الذى منحتة اياها انجلترا، بحيث أصبح من حق فرنسا أن تمد حدود ممتلكاتها فى افريقيا الغربية حتى بحيرة تشاد شمالا، وشرقا الى أى مدى تشاء.

هال انجلترا تصدع هذه الجبهة التى أنشأتها بالاتفاق مع المانيا وأرادت أن تصلح ما أفسده الاتفاق الفرنسى الألمانى. فيممت وجهها شطر بلجيكا وعقدت مع ملكها ليوبولد اتفاقا فى مايو عام ١٨٩٤ ينص على منح انجلترا شريطا ضيقا يمتد من بحيرة تنجانيقا الى بحيرة ألبرت ادوارد فى مقابل تأجير منطقة بحر الغزال الى ملك بلجيكا، وذلك لتحول بين فرنسا وبين التقدم فى اعالى النيل وتهديد مركز انجلترا فى مصر. فثارت المانيا وفرنسا لهذا الاتفاق واحتجتا لدى انجلترا وأعلنتا بطلانه. وبهذا تفشل انجلترا فى عرقلة التقدم الفرنسى جهة غرب السودان.

أما عن موقف الحبشة فى ذلك الوقت فقـد عرفنا كيف استغلت فرصة اعتزام مصر اخلاء السودان وضغط الحكومة الانجليزية عليها ، فى أن تعقد اتفاقاً ثلاثيا بينها وبين مصر وانجلترا استولت بمقتضاه على منطقة كسلا واميديب وسنهيت وبوغوص . كما منحت تسهيلات كبيرة فى مرور بضائعها وأسلحتها عن طريق مصوع . وكانت الحبشة تطمع فيما هو أبعد من ذلك ، ألا وهو الوصول الى نهر النيل نفسه . وقد شجعها على ذلك عجز حكومة التعايشى عن الدفاع عن حدود السودان المترامية ونجاح بعض الدول الأوربية فى اقتطاع أجزاء منه .

وقد خيبت انجلترا آمال الحبشة ، فمعاهدة عدوة فى ٣ يونيه عـام ١٨٨٤ لم تحقق لها شيئا . فمصوع قد وقعت فى يد ايطاليا ، كذلك استطاعت تكوين مستعمرة اريتريا وأن تحتل كسلا وأن تدس أنفها فى اقليم هرر . كما استطاعت ايطاليا أيضا عقد معـاهدة أوتشالى مع ملك الحبشة فى ٢ مايو عام ١٨٨٩ والتى منحتها الحق فى بسط حمايتها على الحبشة ، وجعلها منطقة نفوذ ايطالية .

لم تتقيد ايطاليا بالمناطق الحبشية التى نص عليها الاتفاق ، بل تجاوزتها واحتلت عدوة فى عام ١٨٩٠ . وقد أساء هذا العمل الى ملك الحبشة أيما إساءة ولـكنه سرها فى نفسه ، لأن الوقت غير مناسب للدخول فى حرب معها . وقد واتته الفرصة حينما تمكن من انزال هزيمة منكرة بالقوات الايطالية فى موقعة عدوة فى أول مايو

عام ١٨٩٦ . وأرغمت ايطاليا على توقيع معاهدة أديس أبابا مع منليك فى ٢٦ اكتوبر من نفس السنة ، اعترفت فيها ايطاليا باستقلال الحبشة وتحديد الحدود بين اريتريا والحبشة .

استعادة فتح السودان

كان لإنهزام ايطاليا فى موقعة عدوة أسوأ الأثر فى نفوس الانجليز ، وجعلتهم يفكرون جديا فى استرجاع السودان قبل أن تصل اليه فرنسا ، خصوصا وقد أخذت فرنسا تتقرب من الحبشة وتحاول استغلالها للتوسع فى أعالى النيل واحباط المشروعات الانجليزية . وقد وجد هذا التقارب صدى لدى الاحباش فبفضل معونة فرنسا وأسلحتها استطاعت أن تتغلب على الايطاليين . كما أن فرنسا على استعداد للاعتراف بالمطالب الحبشية على الضفة اليمنى من أعالى النيل .

وفى مارس عام ١٨٩٧ أرسلت الحكومة الفرنسية حاكم الصومال الفرنسى المسيو لاجارد M. Lagarde الى اديس آبابا فى مهمة خاصة تتلخص فى اغراء الحبشة على قبول ارسال حملتين عن طريقها الى منطقة أعالى النيل لمعاونة بعثة أو حملة مارشان الآتية من الغرب عن طريق الكونغو . وقد وافقت الحبشة على ذلك بشرط أن تكون الضفة اليمنى من النيل فيما بين خطى عرض ٥ ، ١٤ شمالا من نصيبها .

قامت الحملتان تعززهما ثالثة فى اتجاه النيل غربا ، ولكن نظرا لسوء الأحوال الجوية وتفشى الأمراض لم تستطع مواصلة التقدم ، ومع ذلك فان مجموعة منهم تبلغ نحو ٨٠٠ رجل ، متضمنة الأوربيين ، جاهدوا حتى وصلوا الى النيل فى ٢٢ يونيه عام ١٨٩٨ قبل أن يصل مارشان الى فاشودة بثلاثة اسابيع » [1] . وقد استاء هؤلاء من البقاء طويلا فقرروا العودة قبل وصول مارشان . وبهذا تفشل مجهودات فرنسا من ناحية الحبشة .

وفى خلال تلك الفترة نجحت فرنسا فى تشجيع الأحباش على ارسال أربع حملات الى أعالى النيل . ولو انها لم تحرز نجاحا يذكر إلا انها على أى حال قد أظهرت أطماع الحبشة فى الضفة اليمنى من النيـــل .

وجدت انجلترا نفسها مضطرة بأن تبذل نشاطا مضادا لنشاط فرنسا فى اديس أبابا ، خصوصا وأن العلاقات بينها وبين الحبشة لم تكن مرضية نظرا لمساعدة انجلترا ايطاليا فى حربها ضد الحبشة سنة ١٨٩٦ ، هذا بالاضافة إلى أن أى اتفاق بين فرنسا والحبشة سيكون له خطورته على القوة المصرية الزاحفة على السودان . كما أن انجلترا كانت تخشى من وجود اتفاق بين الحبشة والدراويش فى

---

١ — د. على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية ، فى أعالى النيل ص ٢٥٨

السودان . لهذا أرسلت فى أوائل سنة ١٨٩٧ بعثة انجليزية يرأسها المستر رنل رود Rennell Rodd الى أديس أبابا .

وقد نجحت البعثة فى الحصول على اعتراف من منليك بألا يقدم للدراويش أية مساعدة وألا يسمح لأسلحتهم من الوصول إلى السودان عبر أراضيه .

وفى مقابل ذلك سويت مشكلة الحدود بين الحبشة والصومال بمقتضى اتفاقية عقدت بهذا الخصوص فى ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ . ولكنها لم تنجح فى تسوية الحدود الجنوبية والغربية للحبشة نظرا لإصرار منليك على مطالبه . ولهذا أرجأت الحكومة الانجليزية البت فى مسألة الحدود السودانية الحبشية إلى وقت آخر ، ريثما تتمكن القوات المصرية من دخول الخرطوم .

دفعت الأحوال السائدة فى السودان واعتزام فرنسا احتلال أعالى النيل لارغام انجلترا على تسوية المسألة المصرية ، الى تجهيز حملة عسكرية تحت قيادة كتشنر لاسترجاع السودان من أيدى الدراويش . وكانت كل من انجلترا وفرنسا فى سباق من الزمن . أيهما سيكون له الغلبة وأيهما سيصل قبل الآخر . وكما ذكرت كانت فرنسا قد أعدت ثلاث حملات من ناحية الحبشة لمساعدة بعثة مارشان فى تقدمها فى أعالى النيل . وفى يوليه سنة ١٨٩٨ وصل

مارشان الى قرية فاشودة بصحبة عدد من الضباط الأوربيين وما يزيد عن المئة من الجنود السنغاليين ، ورفع العلم الفرنسى فوق هذه القرية . وكانت تشد من أزره قوة بلجيكية أرسلها الملك ليوبولد لحماية مارشان من قوات الدراويش .

تقدمت القوات المصرية بقيادة كتشنر بعد دخولها الخرطوم صوب الجنوب ، ووصلت فاشودة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . وفى ذلك الوقت تقدم كتشنر بانذار الى مارشان محتجا على استيلاء فرنسا على قرية كانت خاضعة لمصر رفضه مارشان وتحرج الموقف وكاد يؤدى إلى نشوب حرب بين الدولتين الكبيرتين ، ولكن فرنسا اضطرت الى الانسحاب فى النهاية بعد أن وجدت أن اعتمادها على حليفتها روسيا لم يفدها شيئا . وفى اتفاقية ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ التى وقعت بين الدولتين وضع حد نهائى لمطامع فرنسا فى فى وادى النيل .

الاتفاق بين بريطانيا والحبشة فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بشأن الحدود

ظلت مشكلة الحدود بين ممتلكات مصر والحبشة التى عجزت مصر عن حلها فى عهد اسماعيل قائمة دون حل . وكان على انجلترا أن تجد لها حلا بعد فشل محاولتها فى سنة ١٨٩٧ . وقد واتتها الفرصة فى ١٩٠٢ نتيجة خطأ وقعت فيه فرنسا واستغلته انجلترا لمصلحتها .

وتفسير ذلك أن امبراطور الحبشة كان قد منح فى سنة ١٨٩٤ أحد السويسريين حق امتياز مد خط حديد الحبشة . وتكونت لهذا الغرض شركة فرنسية ، أخذت على عاتقها تنفيذ هذا الخط . وحدث أن الشركة الفرنسية عجزت عن القيام بالتزاماتها واحتاجت إلى زيادة رأس مالها . فوجدت الشركات الانجليزية أن الفرصة سانحة للاشتراك فى زيادة رأس المال ، ليتمكن بذلك النفوذ الانجليزى من أن يجد له مكانا بالحبشة إلى جانب النفوذ الفرنسى .

وحدث فى ذلك الوقت أن الحكومة الفرنسية تدخلت لدى الشركة الفرنسية ومنحتها إعانة سنوية تقدر بنصف مليون فرنك لمدة خمسين عاما ، وذلك لزيادة رأس المال ، واصدار أسهم بقيمتها تكون من نصيب المكتتبين الفرنسيين . وبهذا العمل استطاعت الحكومة الفرنسية أن تهيمن على الشركة دون استشارة منليك ملك الحبشة أو أخذ رأيه فى هذا الموضوع بصفته صاحب الحق الأول فى منح الامتياز .

استغلت انجلترا هذا الخطأ الذى ارتكبته فرنسا وأخذ مبعوثها فى أديس أبابا السير جون هارنجتون يوغر صدر منليك ضدها ، ويوضح له النوايا الخفية من وراء هذه المحاولة من قبل فرنسا . فترتب على ذلك زيادة التقارب بين انجلترا والحبشة ، هذا التقارب

الذى أدى إلى توقيع الاتفاق بينهما فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بشأن الحدود السودانية الحبشية وفيما يلى أهم النقاط التى اشتملت عليها الاتفاقية [1] :

أولا : اتفق الطرفان المتعاقدان على أن خط الحدود بين السودان وأثيوبيا يسير من أم حجر إلى القلابات فالنيل الأزرق فنهر بارو فنهر بيبور فنهر أكوبو إلى مليلة ، ومنها إلى نقطة تقاطع خط عرض ٦ شمالا مع خط طول ٣٥ شرق جرينتش . (وقد رسم خط الحدود بالمداد الأحمـــر على الخريطتين الملحقتين بالاتفاقية) .

ثانيا : يتعهد جلالة الامبراطور منليك الثانى قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعدم تشييد أو السماح بتشييد أى عمل على النيل الأزرق وبحيرة تسانا أو نهر السوباط يكون من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك البريطانية وحكومة السودان .

ثالثا : يتعهد جـــلالة الملك الامبراطور منليك ملك ملوك اثيوبيا ، بأن يسمح لحكومة جلالة الملك البريطانية فى السودان

1- E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 2, No.100 p. 430

باختيار قطعة أرض بجوار ايتانج على نهر بارو لا تزيد طولها عن ألفى متر ولا تزيد مساحتها عن ٤٠ هكتارا (الهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع) لاحتلالها وإدارتها كمحطة تجارية ، طالما خضع السودان للحكم المصرى الانجليزى ، وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن الأرض المؤجرة لن تستخدم فى الأغراض السياسية أو الحربية .

رابعا : يمنح صاحب الجلالة الامبراطور منليك ، ملك ملوك أثيوبيا ، حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان الحق فى إنشاء خط حديدى عبر الأراضى الحبشية لربط السودان بأوغندة .

بهذه المعاهدة تنتهى مشكلة الحدود بين السودان والحبشة تلك المشكلة التى ثارت فى أواخر عهد اسماعيل والتى حاولت مصر وضع حد لها ، ولكنها أخفقت لمغالاة الأحباش فى مطالبهم . وقد نجحت انجلترا الى حدما فى حل هذه المشكلة فى اتفاقية عدوة فى ٣ يونيه عام ١٨٨٤ . ولكن اطماع ايطاليا وفرنسا والحبشة قد أطاحت بتلك الاتفاقية .

وظلت المشكلة دون حل ، نتيجة تطلع الأحباش الى وادى النيل ورغبتهم فى السيطرة على الضفة اليمنى للنيل جنوبى الخرطوم . ولكن انجلترا ما كانت تسمح بمثل هذا التوسع على حساب السودان .

إلى أن أتاحت الظروف للطرفين الانجليزى والحبشى عقـــد اتفاقية عـام ١٩٠٢ .

وفى نفس الوقت أى فى ١٥ مايو عـــام ١٩٠٢ تم لانجلترا عقـــد معاهدة اخرى بينها وبين ايطاليا والحبشة بشأن تحديد الحـدود بين ارتيريا والحبشة . وبهذا تستقر الأمور على حدود الحبشة بفضل هاتين الاتفاقتين واتفاقى عام ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ ، الأولى بين بريطانياوفرنسا وايطاليا والحبشة ، والثانية بين بريطانيا والحبشة .

وإذا القينـا نظرة عامة على العلاقات بين مصـــر والحبشة فى القرن التاسع عشر ، نجد أن هذه العلاقات قـد تميزت فى الفـترة الاولى منها ، والتى سبقت الاحتلال الانجليزى ، بأثر مصر الواضح فى توجيه تلك العلاقات الوجهة التى تريدها على قـدر ماتسمح به الظروف رغم التدخل الأوروبى فى شئون مصر فى أخريات أيام اسماعيل وبداية عهد توفيق . ولكن منذ أن وقعت مصر فريسة الاحتلال ، لم يصبح مصيرها فى أيديها ، بل انتقلت الى أيد غير أمينه ، كانت ترعى مصلحتها أولا وقبل كل شىء .

ولهـــذا أرغمت مصـــر على قبول معاهـــدة عدوة فى ٣ يونيـــة عام ١٨٨٤ رغم الاجحـاف البين بحقوقها . ومن ثم أخذت انجلترا تتصرف فى شئون مصر وفى ممتلكاتها

طبقا لمشيئتها هى ، دون نظر لمصلحة مصر ، فكانت تسترضى بعض الدول على حساب الممتلكات المصرية ، وتقف فى وجه البعض الآخر — لا حرصا منها على أراضى مصر — وإنما لاختلافه معها حول تقسيم بعض مناطق النفوذ . وهكذا أصبحت انجلترا منذ عقدها الوفاق الثنائى مع مصر ، والخاص بالحكم المشترك فى السودان فى عام ١٨٩٩ تتصرف فى شئونه كيف تشاء من غير رقيب ولا حسيب .

المراجع

أولا — المراجع العربية والتركية :

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(٢) مراجع عربية .

(٣) دوريات .

(٤) خرائــــط

ثانيا — المراجع الأوروبية :

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(٢) مراجع عامة .

(٣) دوريات

أولا : المراجع العربية والتركية نقلا عن دار المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى (عابدين سابقا) .

(١) وثائق لم يسبق نشرها

دفاتر أوامر - وعددها ٢٨ دفترا تشمل السنوات من عام ١٢٧١ هـ الى ١٢٩٧ هـ (عام ١٨٥٤ - عام ١٨٨٠ م) ، وتضم الأوامر الصادرة من والى مصر الى ديوان الجهادية فى كل مايتعلق بشئون القوات المصرية، وخصوصا ما يتصل منها بسياسة اسماعيل الحربية. وهذه الدفاتر غير مسلسلة ، ولكنها توجد مع مجموعة دفاتر الأوامر التى تبدأ برقم ٥٣٠ وتنتهى عند رقم ٢٩٥٤ .

٢ - دفاتر أوامر عربى - وتشتمل على المراسلات المتبادلة بين الخديو اسماعيل ويوحنا ملك الحبشة ، ومنليك ملك شوا ، وبعض رؤوس الاحباش بشأن العلاقات بين مصر واثيوبيا . وتعتبر هذه الوثائق على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنها تبين بجلاء ووضوح سياسة الخديو اسماعيل بإزاء الحبشة .

٣ - دفاتر صادر الجهادية - من رقم ١ الى رقم ٥١٢٧ غير مسلسلة وتشمل السنوات من ١٢٦٠ - ١٢٩٠ هـ (١٨٤٤ - ١٨٧٣) وتشتمل على جميع المكاتبات الصادرة من ديوان الجهادية الى الأورط والآلايات المختلفة .

٤ - دفاتر صادر تلغرافات بمحافظة مصوع - وتشتمل على المراسلات المتبادلة بين حكمدار عام السودان، بشأن التوسع المصرى فى السودان والساحل الشرقى لأفريقيا. وهذه المجموعة تضم أخبار الحملات المصرية على الحبشة، وتوضح بشىء كثير من الأسباب تحركات القوات المصرية فى تقدمها داخل الأراضى الحبشية يوما بيوم، ولهذا تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لموضوع البحث .

٥ - دفاتر قيد الأوامر الكريمة الواردة لديوان الجهادية - وتشتمل على مجموعة ضخمة من الوثائق التى تضم الأوامر التى أصدرها اسماعيل إلى ديوان الجهادية فيما يتعلق بالشئون الحربية.

٦ - دفاتر قيد التلغرافات الواردة لديوان الجهادية - وتحمل الأرقام من ٢٨٥٦ إلى ٢٩٩٤ وهى غير مسلسلة، وعددها ٢٥ دفترا وتشتمل على التلغرافات الواردة لديوان الجهادية من مختلف وحدات الجيش المصرى طلبا للأسلحة والمؤن والكساوى والمرتبات . وتكشف لنا تلك البرقيات عن جانب مظلم، حالك السواد فى تاريخ الجيش المصرى، فتبين الحالة السيئة التى وصلت إليها قواتنا الحربية فى أواخر عصر اسماعيل، عندما اشتدت الأزمة المالية، واضطربت شئون البلاد فقد انعكست هذه الحالة

التعسة على الجيش ، فعم السخط جنوده وضباطه وزاد التذمر بين صفوفه ، وكان ذلك باعثا على قيام الثورة العرابية القومية .

٧ - دفاتر عابدين - وتضم مجموعة تقرب من الخمسين دفترا وتشتمل على المكاتبات المتبادلة بين الخديو اسماعيل والباب العالى عن طريق ممثله (القبوكتخدا) فى الآستانة . ولهذه الدفاتر أهمية كبيرة نظرا لما تلقيه من ضوء على علاقة الخديو بالباب العالى فى مختلف الشئون ، من حربية وسياسية وإدارية . وتوضح الأهداف الخفية فى سياسة اسماعيل وقد ضمت مجموعة من الوثائق السرية (غير الرسمية) المتبادلة بين اسماعيل وممثله فى الاستانة ، وتبين وجهة نظر والى مصر فى علاقته بالدولة العثمانية ومدى تلك العلاقة .

٨ - دفاتر معية تركى - من رقم ٥٢٧ إلى ٥٨٥ بالاضافة إلى ١٨ دفترا بدون رقم . ودونت بهذه الدفاتر المكاتبات التركية المتبادلة بين المعية السنية ومختلف دواوين الحكومة ، ومنها ديوان الجهادية فيما يتعلق بالشؤن الحربية .

٩ - دفاتر وارد الجهادية - من رقم ٥ إلى ٤٦٣٨ غير مسلسلة وتشمل المدة من سنة ١٢٦٠ إلى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٤٤ - ١٨٧٣م) وعددها ٧٥١ دفترا ، وتضم المكاتبات المختلفة الواردة لديوان الجهادية من مختلف وحدات الجيش .

١٠ - دوسيه ٣/٥ كتابات واردة من يوحنا إلى الخديو توفيق - ويشتمل على المكاتبات المتبادلة بين الخديو توفيق والملك يوحنا بشأن تسوية مشكلة الحدود التي ظلت قائمة منذ الحملة الحبشية الأولى . ولهذه الوثائق أهميتها الخاصة في تتبع المشكلة والخطـوات التي اتخذت في سبيل الوصول إلى تسوية مرضية .

١١ - محافظ بحربرا - وتضم المراسلات المتبادلة بين حكمدار السودان ومهردار الخديو بشأن حملة السير ساميويل بيكر والتوسع في أعالي النيل . وتوضح تلك المكاتبات سياسة مصـر بوضوح وجلاء في مسألة ضم مناطق أعالي النيل إلى مصر والسياسة التي اعتزمت الحكومة المصرية تنفيذها في تلك الأقاليم .

١٢ - محافظ الجهادية - من رقم ٧ إلى ١٢ وقد اشتملت على الأوامر الصادرة من الخديو إلى ديوان الجهادية بشأن العمليات الحربية والشئون العسكرية ، ومعظم تلك المراسلات باللغة التركية والبعض الآخر باللغة العربية .

١٣ - محفظة سودان رقم ١/٥ (أوراق تتعلق بحـوادث بلاد الحبشة ومكاتبات من ملك زنجبار) - وتشتمل هذه الوثائق على أخبار حملة أرندروب على الحبشة وسياسة مصر بإزاء التوسع على ساحل أفريقيا الشرقي ، وعلاقتها بزنجبار .

١٤ – محفظة ٨ سودان – وتضم تقارير وافية عن الحملة الحبشية الثانية أى حملة راتب باشا، وعن تحركات القوات المصرية يوما بيوم وساعة بساعة وهى عظيمة الأهميـــة، وخصوصا فيما يتعلق بعمليات مصر الحربية فى الحبشة .

(٢) مراجع عربية أساسية

احمد عرابى باشا – كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . (مخطوط) بدار الكتب المصرية . سنة ٨١ – ١٨٨٢ .

ومؤلف هذا الكتاب غنى عن التعريف فهو زعيم الثورالمصرية الأولى، وأهمية الكتاب ترجع إلى أن احمد عرابى قد اشترك فى حملة راتب باشا على الحبشة كضابط مسئول عن تموين الحملة . وقد ذكر فى صراحة ووضوح تفاصيل كثيرة عن الحملة بصفة خاصة وعن حالة القوات المصرية والمصريين بصفة عامة .

اسماعيل سرهنك باشا – حقائق الأخبارعن دول البحار . جزءان (والثالث غير كامل) القاهرة ١٣١٣ – ١٣١٦ ﻫ

للكتاب قيمة علمية كبيرة، فمؤلفه كان من ضباط البحرية المصرية الممتازين . بدأت خدمته فى عصر اسماعيل ، وكان أبوه

سرهنك بك ما زال فى خدمة البحرية المصرية حتى ذلك الوقت . وقد تدرج اسماعيل سرهنك فى عدة مناصب حربية إلى أن وصل فى سبتمبر سنة ١٨٩٣ إلى منصب ناظر المدرسة الحربية خلفا للضابط الفرنسى لارمى . من هذا العرض الموجز لتاريخ حياة المؤلف ، نرى أنه قد نشأ فى بيئة حربية وعمل هو ووالده فى خدمة البحرية المصرية فى عصر اسماعيل ، فأتاحت له ظروفه وما وصل إليه من مركز رفيع الإلمام التام بحالة الجيش المصرى وما خاضه من حروب .

أمين سامى باشا ـ التعليم فى مصر . القاهرة ١٩١٧

« « « ـ تقويم النيل وعصر عباس وسعيد الجزء الثالث (المجلد الأول) القاهرة ١٩٣٦

« « « ـ تقويم النيل وعصر اسماعيل . (المجلد الثالث) القاهرة ١٩٣٦

للمراجع السابقة أهمية خاصة من وجهة نظر المؤرخ ، وذلك لإعتمادها على المصادر الرسمية المعاصرة ، كجريدة الوقائع المصرية . هذا فضلا عن الوثائق المختلفة التى استطاع الاطلاع عليها بدار المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى، والتى جمع منها الشىء الكثير . وفى نفس الوقت فقد شغل المؤلف عدة مناصب حكومية رئيسية

مكنته القيام بهذا العمل الضخم ، وحشد هذا العدد الكبير من الوثائق الهامة فى تلك المؤلفات .

عمر طوسون (الأمير) - تاريخ مديرية خط الاستوائية المصرية من فتحها إلى ضياعها من سنة ١٨٦٩ إلى ١٨٨٩ . ويتناول الكتاب تاريخ الحكم المصرى لهذه المديرية من حكمدارية السير ساميويل بيكر إلى حكمدارية غوردون وأخيرا حكمدارية أمين باشا حتى عام ١٨٩٩ - ويعتمد المؤلف فى جمعه للمعلومات التى وردت بهذا الكتاب على ما كتبه السير ساميويل بيكر فى كتابيه (بحيرة البرت نيانزا)و(الاسماعيلية) . وكذلك ما كتبه غوردون فى كتابه (خطابات الجنرال غوردون إلى شقيقته) وما كتبه چيسى فى كتابه (سبع سنوات فى السودان) ، وكذلك اعتمد على ما دونه الدكتور آبات فى كتابه (السودان فى ظل حكم اسماعيل) . ولهذا يمكننا القول بأن الكتاب قد اعتمد فى استيفاء معلوماته على شخصيات معاصرة لها أهميتها فى تاريخ مصر .

الدكتور محمد مصطفى صفوت - الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الأوربية أزاءه ١٩٥٢ . لهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة ، وخصوصا فيما يتعلق بموقف الدول الأوربية ازاء احتلال انجلترا مصر ؛ والوضع فى السودان بعد خضوع مصر للحكم

الانجليزى . وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى الاعتماد اعتمادا أساسيا على الوثائق التاريخية لمختلف الدول الأوربية الكبرى .

المراجع الأخرى

احمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن . الجزء الأول ١٩٣٤

الأميرالاى ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر . جزءان . القاهرة ١٣١٩هـ

سليم خليل نقاش : مصر للمصريين . الأجزاء من ٤ — ٩ الإسكندرية سنة ١٨٨٤

عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . جزءان القاهرة ١٩٣٢

« « : الثورة العرابية والإحتلال البريطانى . القاهرة سنة ١٩٣٧ .

« « : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ مطبعة الفكرة بمصر

فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء — سبعة أجزاء . اسكندرية من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦ .

محمد احمد الجابرى : فى شأن الله . أو تاريخ السودان كما يرويه أهله . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الدكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . القاهرة سنة ١٩٤٨

« « « : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . القاهرة سنة ١٩٤٨

الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠-١٨٩٩) القاهرة ١٩٥٧

اللواء محمد مختار (باشا) : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التوريخ الهجـــرية بالسنين الافرنكية والقبطية . بولاق سنة ١٣١١ هـ .

نعوم شقير (بك) : تاريخ السودان القديم والحديث وجعرافيته . ثلاثة أجزاء . القاهرة سنة ١٩٠٣ .

(٣) دوريات

الوقائع المصرية : وهى سجل حافل لأهم الاحداث التى وقعت فى عصر اسماعيل . ويستطيع الباحث أن

يجد بها من المعلومات الشيء الكثير . وقد اعتمد عليها أمين سامى باشا اعتمادا كبيرا فى تدوين مؤلفه (تقويم النيل) .

الجريدة العسكرية المصرية : وهى صحيفة شهرية قمرية ، بدأ صدورها فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) وقد اهتمت اهتماما خاصا بأخبار الجيش المصرى وبنظمه وتعاليمه .

مجلة أركان حرب الجيش المصرى : عاصرت هذه المجلة الجريدة السابقة . وصدرت لأول مرة فى سنة ١٢٩٠ هـ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣) . وقد عنيت بنشر أخبار الحروب والمعارك التى خاضها الجيش المصرى ، والنشاط الذى ساهمت فيه يتركز حول حركة الكشوف الجغرافية ورسم الخرائط المختلفة لأنحاء السودان بما فى ذلك الحبشة .

(٤) الخرائط

خرائط الحبشة : وهذه الخرائط محفوظة بالقصر الجمهورى (عابدين سابقا) . وقام بوضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى . وتشتمل على خرائط عديدة توضح خط سير حملات ارندروب ومنسنجر وراتب باشا . وكذلك خريطة تفصيلية لمعركة قرع . وقد نقلت بعض هذه الخرائط بشكل مصغر وضمنتها هذا الكتاب .

المراجع الأوربية

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(أ) الوثائق الانجليزية المنقولة عن وزارة الخارجيـــة الانجليزية .

British Foreign Office Correspondance, Public Record Office, London.

وقد رمزنا اليها فى هــــذا الكتاب بالحرفين F. O. ، وتضم الوثائق التى تبودلت بين قناصل انجلترا الجنرالات بمصر فى فترة حكم اسماعيل ،ووزارة الخارجية الانجليزية ، والتى تتعلق بشئون مصر من سياسية وادارية وحربية . وكذلك المكاتبات المتبادلة بين سفير انجلترا بالآستانه ووزارة الخارجية الانجليزية فيما يختص بشئون مصر . وتشتمل أيضا على المراسلات المتبادلة بين سفراء انجلترا بالدول الأوربية المختلفة ووزراء الخارجية الانجليزية الخاصة بمصر . وتلقى هذه الوثائق ضوءا كبيرا على سياسة اسماعيل ازاء انجلترا ، وموقف الحكومة الانجليزية منه طوال فترة حكمه إلى احتلالها لمصر سنة ١٨٨٨ .

وقد رتبت تلك الوثائق على النحو التالى :

Dossier No.	24	1862-63
" "	25	1864

Dossier	No.	26	1865
''	''	27	1866-1869
''	''	28	1867-1870
''	''	29	1875-1879
''	''	30	1676
''	''	31	1877
''	''	32	1878
''	''	33	1879
''	''	34	1882

(ب) الوثائق الفرنسيـــة المنقولة عن وزارة الخارجية الفرنسية

Ministére des Affaires Etrangères.

وتشتمل هذه الوثائق على جميع المراسلات المتبادلة بين وزارة الخارجية الفرنسية وقناصل فرنسا الجنرالات بمصر أو سفرائها بالدول الأوربية بشأن المسائل المصرية . وهى توضح سياسة فرنسا إزاء مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وقد رتبت الوثائق على النحو الآتى :

Doss.	No.	46	1863
''	''	47	1864
''	''	48	1865
''	''	49	1866-1868
''	''	50	1869
''	''	51	1870-1872

Doss.	No.	52	1873-1875
"	"	53	1876
"	"	54	1875-1876
"	"	55	1877
"	"	56	1878
"	"	57	1879
"	"	58	1879
"	"	59	1880

(جـ) الوثائق النمساوية المنقولة عن وزارة الخارجية النمساوية

Austrian Foreign Office Correspondance; Weiner Staatarchiv. Embassy and Consular Correspondence 1862-79

وتضم هذه الوثائق المراسلات والتقارير المتبادلة بين وزارة الخارجية النمساوية وقناصل النمسا الجنرالات بمصر وسفرائها بالدول الأوربية الخاصة بمصر. وتلق ضوءا على سياسة النمسا ازاء الدولة العثمانية بصفة عامة ومصر بصفة خاصة. وتشتمل الفترة من سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٨٢ على ٤٢ ملفا.

(د) الوثائق الأمريكية

1 — Egyptian Despatches from the Consulate General of the United States of America in Egypt to the Department of State, Washington in 16 volumes, covering the years 1849-1879 inclusive.

2 — Instructions to the Consuls of the United States in Egypt for the Department of State found in vol. XIV Department of State, Washington, U. S. A. (1848-1868).

3 — Instructions to the Consulate General of the United States at Alexandria, Egypt' for the Department of State found in vol. XV (1868-1875).

Printed Docnmentary Sources :

وهى مجموعة الوثائق الانجليزية التى صــــدرت على شكل كراسات متتابعة خلال النصف الثانى من القرن التاسع ، وتتضمن المراسلات التى تبودلت بين وزارة الخارجيـــة الانجليزية وحكومات الدول الأوربية الأخرى بشأن المسألة المصرية وهى على درجة كبيرة من الأهمية لبيان وجهة نظر الحكومة الانجليزية فيما يتعلق بشئون مصر .

Documents Diplomatiques Français (1871-1914).

قامت بنشر هـذه المجموعة الضخمة من الوثائق الحكومة الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى تضم المراسلات الرسمية التى تبودلت، بين الحكومة الفرنسية وحكومات الدول الأخرى ، أو بين وزارة الخارجية الفرنسية وممثليها الدبلوماسيين لدى تلك الدول . وهذه الوثائق تلقى ضوءا كبيرا على موقف الحكومة الفرنسية من المسائل المصرية ، وتصارع النفوذ بينها

وبين انجلترا فى مصر .

Livres Jaune Français.

وهى شبيهة بالكراسات الزرقاء التى أصدرتها الحكومة الانجليزية ، ولكن معظم ماجاء بتلك الكراسات من وثائق قد تضمنتها مجموعة الوثائق الفرنسية السابقة التى نشرت بعد الحرب العالمية الأولى .

(٢) مراجع أوربيه أساسيه

Baker, Sir S. W; Ismailia, London 1895.

لهذا الكتاب قيمة كبيرة فؤلفه هو السير ساميويل بيكر الذى قام بحملته الشهيرة إلى أعالى النيل وشغل منصب حكمدار مديرية خط الاستواء من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٣ . والكتاب يوضح فى شيء كثير من التفصيل ماقام به مؤلفه فى حملته السابقة من أعمال ، ويبين فى نفس الوقت نزعته الاستعمارية ومحاولته تدعيم النفوذ الانجليزى فى تلك المناطق دون نظر لمصلحة مصر .

Chaillé-Long; My life in four Continents. London 1912.

" " ; L'Egypte et ses provinces perdues. Paris 1892.

" " ; Les Trois Prophets. Le Mahdi Gordon, Arabi. Paris 1886.

للكتب الثلاثة قيمة علمية لا تنكر ، نظرا لما ورد بها من معلومات كثيرة تتعلق بممتلكات مصر فى السودان والقارة الأفريقية وتعرض فى كتابه الأخير على وجه الخصوص لشخصيات ثلاثة كان لها أكبر الأثر فى تاريخ مصر وهم ، المهدى وغوردون وعرابى . والمؤلف من الضباط الأمريكيين الذين استخدموا فى هيئة أركان حرب الجيش المصرى منذ ٣ مارس سنة ١٨٧٠ إلى نهاية حكم اسماعيل . وقد بزغ نجمه بعد نجاحه فى مأموريته إلى ملك أوغنده

فى سنة ١٨٧٤ وطوافه فوق بحيرة ڤيكتوريا وقيادته لتجريدة مكراكا (نيام نيام) سنة ١٨٧٥ . وقد أنعم عليه فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤ برتبة الأميرالاى وبالنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة مكافأة له على خدماته . فنظرا لخبرته بشئون مصر ، وخصوصا مايتعلق منها بالممتلكات الأفريقية ، كانت لكتاباته قيمة كبيرة .

Douin; Histoire de Règne du Khedive Ismail. Le Caire 1933-1939.

Tome 1er — Les premières Années du règne (1863 - 1867)

" 2 — L'apogées (1867-1873)

" 3 — L'Empire Africain :

1er partie (1863-1869)

2 " (1869-1873)

3 " (1874-1876)

ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لاعتماده اعتمادا يكاد يكون تاما على الوثائق التاريخية المحفوظة بالقصر الجمهورى (عابدين سابقا) . وقد تعرض فى هذا الكتاب للامبراطورية الافريقية والتوسع المصرى فى السودان بالتفصيل .

Dye. W. Mc E., Moslem Egypt and Christian Abyssinia, or Military Science under the Khedive in

his provinces beyond the borders as experienced by the American Staff. New York. 1880

من أهم الكتب التى كتبت عن الحروب الحبشية المصرية بكل تفصيل . وهو يضم معلومات قيمة عن حملات مصر على الحبشة وخصوصا حملة راتب باشا . وأهمية الكتاب ترجع إلى أن مؤلفه وهو الجنرال داى كان من الضباط الأمريكيين الذين التحقوا فى خدمة الجيش المصرى منذ عام ١٨٧٠ . وقد اشترك اشتراكا فعليا فى حملة راتب باشا كمساعد للجنرال لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة . ولهذا فكتاباته عنها تعتبر كتابة الخبير ببواطن الأمور ، والعليم بكل دقائق الحملة . وقد اعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا فى هذا الموضوع

Loring, W. W.; A Confederate Soldier in Egypt. New York 1882

وهذا الكتاب أيضا من الكتب القيمة فكاتبه هو الجنرال لورنج أحد الضباط الأمريكيين فى الجيش المصرى . وقد دخل فى خدمة الحكومة المصرية فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، واسندت اليه مهمة تحصين السواحل المصرية ، ثم عين رئيسا لهيئة أركان حرب حملة راتب باشا . فكتاباته عن تلك الحرب ، كتابة مستفيضة ولكنه قد حمل فى بعضها على راتب باشا ، وحاول الدفاع عن موقفه فى المواضع التى شعر فيها بضعف مركزه أو بخطائه .

Hertslet E.; the Map of Africa by Treacy, 3 vols. third Edition. London 1909.

لهذا الكتاب أهمية كبيرة وخصوصا فيما يتعلق بالتقسيمات التى تمت بين الدول الأوربية بشأن تقسيم المستعمرات ومناطق النفوذ . وهو سجل حافل بالمعاهدات الرسمية التى تمت بين الدول الأوربية بعضها ببعض ؛ أو بينها وبين الدول الأفريقية . والكتاب مزود بعدد كبير من الخرائط الملحقة بهذه المعاهدات . وعلى العموم فالكتاب لا غنى عنه لأى باحث فى تاريخ أفريقيا الحديث

مراجع أوربية اخرى

Abbat Dr,, Le Soudan sous le règne du Hhedive Ismail.

Allen, Bernard M.; Gordon and the Sudan, London, 1931.

Crabités P. ; Americans in the Egyptian Army. London 1938.

Cromer (Earl); Modern Egypt. 2 vols. 1908

Darcy. Jean ; France et Angleterre. Cent Années de Rivalité Coloniale. Paris, 1909.

De Leon (Edwine) ; The Khedive's Egypt. London 1877.

De Leon (Edwine) ; Egypt under its Khedives. London 1882.

Dicey ; The History of the Khedivate. London. 1902

Farman E. E. ; Egypt & its Betrayal. New York. 1809.

Gordon : Letters of General Gordon to his Sister. London 1888.

Mekki Shibeika ; British Policy in the Suden (1882-1902)

Sabry M. ; L'Empire Egyptienne sous Ismail et

l'Ingerence; Anglo-Française' Paris 1939.

Shukry M. ; The Khedive Ismail & Slavery in Sudan. (1863-1879) Caire 1938.

General Books

The Combridge Modern History. vol XII Egypt & the Egyptian Sudan (1841-1907) by F. M Sandwith

Histoire Général. vol. XII ch. XII "La politique Européene jusqu'au Traité de Berlin 1871-1878 par M. A. Malet."

Publications of the Egyptian General Staff

The Egyptian Compaign in Abyssinia from notes of a Staff-Afficer.

Periodicals

Bulletin d' l' Iastitut Egxptien. T. V Année 1911 L'Expedition de l'Egypte contre l'Abyssinie (1875-1876) par le General F. Von Thurneyssen Pacha.

Sudan Notes and Records

Revue d'Egypte III P. 640 "L'Expedition de Ratib Pach Juillet 1877" par Dr. Suzzara.